

المستقبل العربي
محمد عودة
الطريق
الى
صنعاء

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الطريق إلى صنعاء

الطريق إلى صنعاء

بقلم

محمد عودة



الصقر العربي للإبداع



دار المستقبل العربي

الطريق إلى صنعاء

محمد عودة

الغلاف : **يوسف شاكر**

الناشر : **دار المستقبل العربي**
٤١ شارع بيروت – مصر الجديدة – القاهرة
ج . م . ع ، ت : ٢٩٠٤٧٢٧

الصقر العربي للإبداع
قبرص ، ليماسول
69 Gladstono st., Akropolis Center,
Office 402, Limassol (Cyprus)
ج . م . ع . ، القاهرة
٢ شارع شريف / عمارة اللواء / ت : ٣٩٣٤٠٧٤
إنجلترا ، لندن
101 Kliburrn Square, London N.W.6

وكلاء التوزيع بالجماهيرية الليبية :
الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان
شارع سناء محيدلي / مصراته / ليبيا

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٣١٨٥ / ١٩٩٢
الترقيم الدولي : ٠ - ٠٣١ - ٢٣٩ - ٩٧٧ ISBN

الإمــام

إستيقظ العرب على نبأ تردد معظمهم فى تصديقه ، قال بأن ثورة اشتعلت فى اليمن ، وأنها أطاحت بالإمام ونظام الإمامة وأنها أعلنت الجمهورية . وكان ذلك يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ .

وإنتاب بعض العارفين بشئون هذا البلد جزع وفزع . واشفقوا على مصير الذين جازفوا بالمغامرة ، وأنها شجاعة لاشك ، ولكن سوف تنتهى حتما بالفشل ، وسوف ينجو الإمام ذو الأرواح السبعة والمائة رأس كوحش « الهيدرا » . وسوف ينتفض وينقض بسيفه ويغرق اليمن فى بحر من الدم ، كما حدث من قبل أكثر من مرة !

لم يكن الحدث الأول ـــ كما قال العارفون ـــ فمنذ أقل من عامين أعلن نفس النبأ وعمت النشوة والبشر ، ولم يمض أكثر من يوم حتى تم تكذيبه وخابت الآمال ، وبعث الإمام حيا ، وساخرا من أعدائه ، وانطلق فى جنون محموم يقطع الرقاب !

وقيل يومئذ إن ذلك قدر اليمن ، وأنها تجمدت وتحجرت فى أسر « الأئمة » وأنها خرجت من التاريخ وكتب لها أن تكون متحفا لعصور سحيقة ، وربما الأثر الوحيد الباقى لما كانت عليه الحياة فى القرون الوسطى .

وكان يحكم اليمن « أئمة زيود » إستأثروا بالسلطة الروحية والزمنية لألف ومائة عام متصلة ــ أطول حكم فى التاريخ ــ والأشد تخلفا ووطأة !

كانت « الزيدية » فرقة من الفرق التى تفرع إليها الفقه الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى .

وكان مؤسسها زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، قد نشأ مع شقيقه محمد الباقر فى بيت مستغرق فى هموم العلم والثورة والخروج على الظالمين ، وكان العلم فى ذلك البيت طريقا إلى الثورة ، وكانت الثورة طريقا إلى محاربة المستبدين والطغاة ، وقد وضع الشقيقان الأسس الأولى لفرقتين من أهم الفرق الإسلامية وهى : « الزيدية » و « الإمامية » .

تتلمذ زيد على أخيه وأخذ عنه قدرا من أفكاره الشيعية ، ثم أخذ عن واصل بن عطاء « علم الكلام » ، ونهج المعتزلة ، ثم التقى بأبى حنيفة النعمان وتتلمذ عليه ودرس معه فقه السنة ، ومن اللقاء مع هؤلاء الثلاثة الأفذاذ تكونت العناصر الأولى للزيدية .. وكانت بذلك شيعية سنية معتزلة ووصفت بأنها « معتزلة فى الأصول ، حنفية سنية فى الفقه والفروع » .

ووضع ذلك المذهب « الثورى » أربعة عشر شرطا لمن يتولى الإمامة . وهى : « أن يكون ذكرا حرا مجتهدا علويا فاطميا عدلا سخيا ورعا سليم العقل سليم الحواس سليم الأطراف ، صاحب رأى وتدبير ، مقداما فارسا » .

وقضى المذهب الزيدى بأن لاتكون الإمامة وراثية ولكن « ديمقراطية » بالانتخاب والبيعة الشعبية . واعترفت الزيدية بحق « الثورة » فى نقض البيعة إذا ماخرج الإمام على العهد ، أو إذا فقد شرطا من شروط الإمامة ، وأن يتولى الإمام « الأفضل » السلطة بعد أن تتم له بيعة القضاة والفقهاء . !

وقد وفد « الزيود » على جبال اليمن النائية المنيعة فى الشمال ، للدعوة لمذهبهم ، وكان أول من خرج منهم داعيا لنفسه بالإمامة « يحيى بن القاسم الرسى . والذى بويع إماما فى سنة ٢٨٨ هجرية ـــ ٩٠٠ ميلادية وتسمَّى بالإمام الهادى » . وبقى ذلك فى بطون الكتب ، وبعد الإمام الأول نقض خلفاؤه كل العهود ، وخرجوا على كل الأصول والفروع ، عزلوا وطوال الأحد عشر قرنا اليمن عن العالم ، وعزلوا الزيدية عن الناس ، وعزلوا أنفسهم عن الزيدية ، وانقلبوا ملوكا يقطعون الرقاب ويشيعون الظلم والجور ، ويملأون السجون حفاظا على حكمهم لا على الوطن والدين .

وبلغ بهم الأمر أن حرموا قراءة كتب زيد بن على حتى لا يدرك أحد من الرعية مدى الانفصام الذى أحدثوه . وسَخَّرَ حكام اليمن العلماء والقضاة فى تبرير الذنوب والكبائر ، وأفتى هؤلاء أن الإمام ظِلُ الله على الأرض ، ويحتل المرتبة الثالثة مباشرة ، بعد الله والرسول ، وأنه يملك القدرة على المعجزات والخوارق ، وأن أحدا لا يغلبه أو يهزمه ، ولا يقطع السيف رقبته ولا يخترق رصاص البنادق جسده . ويُسَخِّر الجن ، وهو يتحول إلى طير أخضر يذهب للصلاة فى الكعبة كلما أراد ، ومن ينتقد الإمام بقلبه كان منافقا ، ومن ينتقده بلسانه كان زنديقا ، ومن خرج عليه كان كافرا يباح دمه .

أفتى علماء الإمامة وقضاتها بأن اليمن وحدها أصبحت دار الإسلام ، لأن كل ما عداها من دول وأقطار أصبحت دار كفر وحذت وفسقت بعدما فتحت أبوابها للنصارى والكفار !.

وتعاقب على حكم اليمن ثلاثة وسبعون إماما تفنن كل منهم فى عزل اليمن وإحكام إغلاقها ـــ كانت هناك سبعة أبواب للعاصمة صنعاء تغلق عند الغروب وتفتح عند الشروق ـــ وكذلك كانت كل المدن .

وأضاف كل إمام جديد أسلوبا أشد فظاعة وبشاعة في التنكيل والتعذيب فاق كل ما عرفه الأولون والآخرون ، ولهذا كان لابد وأن تنتفض الرعية أحيانا وتثور القبائل وتتمرد ، وأن يعم ذلك أحيانا أرجاء شاسعة من البلاد .. واشتهرت اليمن بذلك ، وأصبح طابع حياتها ، وعاش الأئمة فى صراع دائم مع الرعية ، راح ضحيته ثمانية عشر إماما ماتوا إغتيالا ، بعد أن يدفع الناس ثمنا أشد فداحة !

أصبحت اليمن هى الإمام والإمام هو اليمن . لم تكن تتم صغيرة أو كبيرة إلا بأمره ، ولا يُصرف قرش من « بيت المال » قبل موافقته ، ولا يفتى فى مسألة قبل استجلاء رأيه .. وذات يوم أشار عليه أحد مستشاريه أن يخفف العبء وأن يختار لنفسه رئيس وزراء كما يفعل الملوك والحكام فى هذا الزمان ، واستجاب للنصيحة وأصدر مرسوما « إماميا » بتعيين نفسه رئيسا للوزراء !

وتوطيدا للسلطة قسم اليمن إلى خمسة « ألوية » ثم زادها إلى « ثمانية » وعين « سيوف الإسلام » منَ أولاده وأخوته أمراء على الألوية وليكونوا « أئمة » صغاراً .

ولم يكن ذلك ليمنع الإمام من أن يقطع رقبة من يخالفه أو يعصاه أو يتمرد عليه من هؤلاء الأبناء والأشقاء ، وكان ذلك يحدث كثيرا واشتهرت أسرة حميد الدين بصراعاتها الداخلية والدموية . وقد أعدم الإمام إبنه وخمسة من أشقائه بالسيف فى الميدان العام . وكذلك دس لأحد أشقائه السم فى الطعام بعد عام من الآلام والعذاب .

واعتمد « الأئمة » فى تثبيت المُلْكْ طريقة رادعة لإخماد وتمرد وعصيان القبائل ، سميت « الخطاط » وهى تحريض قبيلة ضد الأخرى وأن تحتل المنتصرة أرض المهزومة وتقيم عليها حتى تجردها من كل ثرواتها ، ولا تغادر قبل أن تقضى على الأخضر واليابس .

وكان جيش « الإمام » يمارس نفس السياسة إذا ماقام بالمهمة وذهب فى حملة قمع ، وكثيرا ماكلف بهذه المهام والتى كانت توفر نفقات طعامه ومرتباته !

ولكن أقسى ماتفتق عنه نظام الحكم فى اليمن كان « نظام الرهائن » والذى يقضى بأن يقدم شيخ القبيلة واحدا من أبنائه ليظل رهينة عند الإمام .. تضمن حسن سير وسلوك الأب ، وكانت أعمار الرهائن تتراوح بين سنة وثمانى عشرة سنة ، وأحيانا كان الطفل وأمه يؤخذان رهينة . ووضع لهم نظاماً خاصاً « وسط بين الأيتام والجنود والمساجين ، وتتكفل القبيلة بنفقات طعام وملبس رهينتها ، وتتكفل الحكومة بالمأوى والقيود » ! . ويتراوح عدد الرهائن بين الألف والأربعة آلاف !!

وكان الكاتب اللبنانى أمين الريحانى أحد القلائل الذين أتيحت لهم زيارة اليمن « السعيد » فى العشرينيات والطواف بها وصدمه النظام فقال : « سمعت عن الرهائن فاستغربت واستنكرت وكدت أكذب ماسمعت ، إلا أن أغرب الأمور هو أقربها أحيانا إلى الحقيقة والإمام يحيى يتقاضى من كل شيخ قبيلة ومن كل موظف من موظفى حكومته الكبار المدنيين والعسكريين على السواء رهينة واحدة ، تبقى فى حوزته كفالة الإخلاص والإستقامة فى الخدمة وضمانة الصدق والوفاء فى التبعية .

ووجد الإمام من يفتى له بشرعية وأفضلية رهن البشر بقوله : « إن ما يفعله بيت الرهائن فى اليمن من نتائج تتمثل فى الأمن والهدوء والاستقرار تفوق مالا يفعله أى قانون دستورى بالممالك التى مُنيت بالقلاقل وألفت الاضطرابات » .

وكانت اليمن ضيعة خاصة يملك الإمام كل شيء فيها : الأرض والبشر كما يسخرهم فيما يرى أنه يعود على البلاد بالخير ، وكانت اليمن تزخر بموارد الثروة الظاهرة والكامنة : الزراعة والصناعة والتجارة والسياحة ، ولكنها أهملت جميعها ،

وركز الإمام كل اهتمامه على محصول واحد هو « البن » . ومنح احتكار تجارته لشركة « إيرانية » كانت تقتسم معه المحصول والأرباح !!

وظل ٧٥ ٪ من أرض اليمن بورا لاتزرع ، و ٢٥ ٪ منها مزروعة زراعة ناقصة وكلها تصلح لكل نبات معروف فى الدنيا .. البن والدخان والقطن وقصب السكر والزيتون ، ويمكن أن تغل مايكفل الرخاء للحكام والمحكومين . وتزخر اليمن بأثمن المعادن ، الذهب والفضة والفحم والحديد والنحاس والكبريت والفوسفات واشتهرت بالملاحات ودلت الاستطلاعات على أن بحيرة البترول الكبرى تمتد إليها .

وحاولت شركات عالمية واستماتت فى النفاذ إلى اليمن واستثمار مواردها ، كما فعلت فى دول مجاورة ، وحاول مستثمرون ورأسماليون عرب ويمنيون ، ولكن رفض الإمام رفضا قاطعا كل الطلبات .

كان « الأجانب » يطمعون فى نهب الثروة وفى الاستيلاء على المملكة ، وكان اليمنيون والعرب عملاء لهؤلاء الأجانب والنصارى أو متآمرين دستوريين كفار .

وقد حاول بعض الإصلاحيين إقناع الإمام بالحسنى وذكره أحدهم : « أن محمد على باشا كان أمياً لايقرأ ولا يكتب وجلالتكم أعلم بما وصلت إليه دولته من هيبة حتى خافه الأوروبيون مجتمعين ، ولا يزال أنجاله يتوارثون تلك الآثار إلى اليوم » ولكن جلالته أصم أذانه !

ورفض الإمام سنة ١٩٤٢ [بعد الميلاد] دخول رجال الهيئة الدولية لمكافحة الجراد إلى اليمن .. وأعلن بلا حرج « أن الجراد رزق من عند الله ساقه إلى أهل اليمن فكيف نقضى عليه » . وكانت المجاعات قد علمتهم أكل كل شىء حتى الجراد .

ولم يكن لليمن ميزانية تحدد الموارد والمصروفات ، ولم تعرف البنوك لأنها « بدعة » . ولم يكن لها عملة قومية ، واحتفظت بعملة غربية هى الريال النمساوى ويسمى « ريال ماريا تريزا » ولم يجد الإمام حاجة للإصلاح أو التنمية مادام يجبى مايكفيه من الضرائب .

وكانت تسمى « الزكاة » وتفرض على كل شيء وأى شيء من الدواجن والمواشى إلى حلى النساء من الذهب والفضة وحتى أصغر دكان أو مخزن فى المدينة .

ونظرا لكثرة الحروب والغزوات فرض « زكاة الجهاد » على كل الرعية . ولأنه كان يحمى « أهل الذمة » من اليهود فرض عليهم الجزية وقسمها إلى أنواع : للأغنياء والمتوسطين والفقراء !

وكان له الحق إذا ما ألمت بالبلاد ضائقة أن يطلب إلى كل غنى أن يتبرع بنصف ماله . ولم يكن يقصر فى كسب رزقه وكان يسخر علاقاته بالجن فى صنع الأحجبة والتمائم والتى تشفى من الأمراض ويبيعها بالثمن الذى يتبرع به طالبها « لبيت مال المسلمين » !

وفرض « زكاة الضيافة » وهى حقه إذا مازار بلدا أو نزل على قبيلة ، وقلده فى ذلك كل رجال وموظفى الدولة وأصبح تقليدا يقلدون به « إمامهم » .

ولم يكن هناك نظام ثابت « للزكاة » وتتغير وفق ما يقرره الإمام ، وكان المحصلون إما « ملتزم » فيتعهد بجبايتها ، ويسدد حق الإمام ، أو « عمال » أى موظفون مباشرون يتولون التحصيل ، ويستأثرون بنصيبهم قبل نصيب الإمام ..

وكان الإمام شديد الحرص على المال ولهذا كان يحمل المفاتيح — كل مفاتيح بيت المال — ويعلقها فى رقبته ولا يخلعها أبدا حتى فى مقابلاته الرسمية والدبلوماسية .

وكان الإمام يرى ويعلن أن لاحاجة للرعية أن يتعلموا أكثر من الفاتحة وفرائض الصلاة ، وأنه لاينبغى لأحد منهم أن يعرف أكثر مما يعرف الإمام ، وأن الله يلعن الشعب الذى يعرف أكثر من إمامه .

وكان فى اليمن مع هذا خمس مدارس ابتدائية ، وثلاث مدارس ثانوية ، ومدرسة للمعلمين ثم مدرسة « علمية » تدرس الفقه الزيدى واللغة العربية !

واضطر الإمام على مضض منه أن يفتح نافذة صغيرة على العالم حينما خسر الحرب ضد السعودية سنة ١٩٣٤ ولم يجد بُداً من أن يأخذ نصيحة من أشاروا عليه بأن يرسل بعثة عسكرية وأخرى مدنية إلى العراق لكى تستطيع أن تعد جيشا « قويا » يثأر به من ابن سعود ..

ولم يكن يؤمن بالطب ولم يكن بالمملكة أكثر من ثلاثة أطباء أجانب ، وكان العلاج يعتمد على الأعشاب أو التمائم ، خاصة التى يكتبها الإمام .

وكتب طبيب إيطالى إفتتح أول مستشفى فى اليمن يصف الحال : « هذا شعب لاشك ذو حصانة من نوع خاص . وهو يقاوم كل الأمراض بعناد . ويتحصن منها بلا طب ولا دواء . وتتفشى هنا كل الأمراض والأوبئة وأحيانا تثير الفزع ، هناك الجدرى والتيفود والتيفوس والملاريا ، تأتى وتذهب وتحصد الآلاف ، وكأن شيئا لم يحدث » .

وحينما تفشى وباء الكوليرا فى « الشرق الأوسط » خلال الحرب العالمية الثانية وتمت حملات التطعيم فى كل البلاد العربية . استثنيت اليمن لأن الإمام رفض السماح بدخول بعثات الأطباء الأجانب أو العرب . واجتاح الطاعون اليمن سنة ١٩٤٧ [بعد الميلاد] . ولكن فوجئت منظمة الصحة العالمية وكل الهيئات الدولية والعربية التى سارعت للنجدة بمنعها من الدخول وبإعلان الإمام « أن الطاعون رحمة يختص بها الله من يشاء من عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة » .

ووصف أمين الريحانى اليمن بعد أن أتم جولته قائلا : « كأنك فى السياحة فى تلك البلاد السعيدة تعود فجأة إلى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، لا مدارس ، لا جرائد لامطابع ، لا أدوية ، لا أطباء ، لا مستشفيات . والإمام هو كل شيء العالم والطبيب والمحامى والفقيه » .

وبلغ نظام الإمامة « الزيدية » ذروته فى عهد الأئمة الثلاثة الذين انتهى بهم حكم الألف ومائة عام .

وحكم المتوكل على الله يحيى بن حميد الدين أربعة وأربعين عاما منذ ١٩٠٤ حتى ١٩٤٨ ، حيث أجهزت عليه ثورة « الأحرار » واغتاله أحد « الرهائن » !

وتولى بعده ابنه الناصر بالله أحمد بن يحيى حميد الدين ، والذى اشتهر بدمويته ولقب بالسفاح .. وحكم ثلاثة عشر عاما ومات متأثرا برصاصات استقرت فى جسده طوال عام ونصف بعد محاولة اغتياله سنة ١٩٦١ .

وتولى الإمام الثالث والأخير المنصور بالله محمد البدر ، وبعد حكم دام سبعة أيام فقط هرب بعدها متنكرا فى ثياب امرأة ولم يعد .

الثـورة

لم تعرف اليمن الأحزاب أو التنظيمات السياسية التى تكونت بعد الحرب العالمية الأولى فى العشرينيات والثلاثينيات ، سواء فى المشرق أو فى المغرب ، مثل الوفد فى مصر والحزب الوطنى الديمقراطى فى العراق والحزب الحر الدستورى التونسى الجديد أو حزب الاستقلال فى المغرب !

وقد أخذت هذه الأحزاب على عاتقها مهمة التحرير ومقاومة الاستعمار وملحقاته أى الاستبداد والاستغلال ثم الاستغراب « الثقافى » .

ولم يكن ممكنا أن تقوم مثل هذه التنظيمات فى اليمن ، لأن الوعى السياسى كان ضئيلا ، ولأن مجتمع اليمن لم يكن لينجب أحزابا أو تنظيمات تعتمد أساساً على طبقة وسطى وقاعدة شعبية عريضة وطليعة مثقفة ومناضلة .

كانت أوضاع اليمن فريدة وكان العدو الرئيسى داخليا وليس أجنبيا محتلا ، وبينما كان الاستعمار البريطانى قد انتزع النصف الجنوبى « الاستراتيجى » استعرت المعركة الوطنية الديمقراطية فى الشمال ضد الطغيان ، وأصبحت الأولوية للتحرر من الاستبداد .. ثم الاستعمار !

واستطاعت تيارات عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية أن تشق شرخا فى أسوار الحصار ، وأن تخترق الستائر الثقيلة المسدلة على عقل ووجدان الشعب ، وأن

تحرك البركان الخامد منذ عشرة قرون وأن تبدأ فى أن يمور ويتململ !

وتكون أول تنظيم سياسى فى تاريخ اليمن سنة ١٩٤٤ فى عدن عاصمة الجنوب المحتل ، مستغلا مناخ الحرية النسبية الذى كان قائما فى ظل الاستعمار ، وكان منعدما فى ظل الاستقلال فى الشمال .

وتجاوبت اليمن المقهورة مع الحزب الجديد وبما لم يتوقع المؤسسون وكان على رأسهم ثنائى فريد يعكس « عبقرية » الشعب . محمد محمود الزبيرى و أحمد محمد نعمان ، أحدهما قديس وهب حياته لإقامة المدينة « اليمنية الفاضلة » والآخر فقيه سياسى أكثر واقعية يؤمن بفن الممكن ، وعلى يديهما انتشرت الدعوة وتسللت .

وبعد عامين من التجارب والأخطاء تقرر إعادة تكوين الحزب على أسس أكثر وضوحا وشمولا ، وأعلن عن ولادته الثانية باسم الجمعية اليمانية الكبرى فى يناير سنة ١٩٤٦ ، وأذاعت بيانا دعت فيه « أبناء اليمن أن يتحدوا ويتعاونوا ويسيروا جميعا فى طريق واحد إلى هدف واحد ، تحت ظل الجمعية اليمانية الكبرى

وتقرر أصدار مجلة أسبوعية تنطق باسمها تدعى « صوت اليمن » تحمل وتنشر ثقافة العصر وتجدد التراث وتنقيه وتصل لكل مواطن ..

وكانت الجمعية اليمانية الكبرى تنظيما فريدا فى نوعه ، تصدره العلماء والفقهاء والقضاة الذين هالهم وأثارهم الانفصام التام بين « الزيدية » فى جوهرها وبين تطبيقاتها على يد الأئمة » . بينما لايزال ماثلا فى الأذهان كيف استشهد زيد بن على متحديا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ومنددا بجوره وظلمه » !

استفز هذا الجيل من العلماء والفقهاء امتهان الدين وابتذاله وتسخيره فى تبرير المظالم والجرائم ، وقد درس بعضهم فى الأزهر واطلع على كتب وتعاليم

المجددين والمصلحين أمثال الطهطاوى والأفغانى والكواكبى ومحمد عبده ، وكل الذين تفتحوا على حضارة العصر ولاءموا بينها وبين تعاليم الإسلام .

وكان الفقهاء والقضاة هم أصحاب البيعة والذين يقرون بصلاحية الإمام أو فساده ، ويصدقون على ترشيحه أو خلعه ، ولهذا كانت قيادتهم للتنظيم استمرارا لمكانتهم ورسالتهم !

واجتذب التنظيم عددا من أبناء الأسر العريقة من الأشراف والسادة ، والذين كانوا لايحملون توقيرا أو احتراما للإمام وأسرته بل ويدركون أن هذا النهج من الحكم فى العصر كفيل بأن ينتهى بالنظام إلى التهلكة .

واستطاع التنظيم أن يجتذب عددا من أفراد الأسرة « الحميدية » الحاكمة ، كان أبرزهم أفضل أبناء الإمام نفسه ، سيف الإسلام إبراهيم ، والذى غضب عليه الأب وجرده من لقبه ومنحه الشعب لقبا بديلا وأصبح سيف الحق إبراهيم .

وقد استمات فى إقناع أبيه بضرورة الإصلاح والتغيير ، وحتميته ، وحينما يئس هاجر إلى عدن وانضم للأحرار .

وانضم للتنظيم عدد من التجار الكبار ، وكان هؤلاء طبقة ثاقبة خاصة فى الجنوب المحتل ، ويدركون أنهم أحق وأقدر على استثمار ثروة اليمن ومواردها المهدرة ، وأن إزاحة النظام « الكهنوتى » وإقامة حكم وطنى مستنير يحقق التنمية .

وربما كان أهم من اجتذبهم التنظيم وضمهم إليه كان القوى الفنية ، العسكرية والمدنية التى ولدت فى منتصف الثلاثينيات وترعرعت سريعا فى قلب المجتمع العتيق ، وكانت أثمن ما أنجبه ، وقد منحت التنظيم أهم ماكان يحتاجه ولا يقوم بغيره وهو القوى المثقفة الحديثة والقوى العسكرية الضاربة .

كانت نقطة التحول فى حياة اليمن الحديثة ، وبدأت بحدث « جسيم » هز

أرجاء المملكة وزلزل أركانها ، وهدد مكانة الإمام الروحية والسياسية . وكاد يقضى عليها .

تورط الإمام فى حرب ضد جارته الشمالية القوية السعودية ، ودخلها معتمدا على ما اخترعه وصدقه من أنه لا يهزم ولا يغلب ، ولا يصيبه الرصاص أو تحز رقبته السيوف ، فَمُنِىَ بهزيمة منكرة ، واستولى ابن سعود على ثلث أرض المملكة فى الشمال ووصلت قواته إلى مشارف العاصمة فى صنعاء . وترنح إيمان الشعب بإمامه « المعصوم » وانفجرت موجة ساخطة وغضب بين كل البدو والحضر ، وأصبح كل هَمِّ الإما ومحور حياته هو الثأر وإزالة العار .

ووجد بعض المصلحين والمستنيرين فى الأزمة العصيبة التى انتابته فرصة « لتهريب » الاصلاح ، وأقنعوه أن لا سبيل له إلى مايريد إلا بانشاء جيش عصرى قوى مسلح بأسلحة حديثة ، يتفوق على جيش ابن سعود الذى دربه وسلحه البريطانيون .

ووافق الإمام على مضض ، وبعد تردد طويل ، اختار بعثة من شبان صغار تم اختيارهم بعناية وتدقيق ، وارسلوا إلى بغداد ليدرسوا فى الكلية الحربية هناك .

وكانت الأسرة الحاكمة فى بغداد هاشمية وعدوة تقليدية للأسرة السعودية ، وكان العراق يملك أقوى جيش عربى هناك وأقنعه هؤلاء أن بعثة واحدة لا تكفى لتخريج ضباط يقودون جيشا فوافق على إرسال بعثة ثانية .

وأقنعوه مرة ثالثة بأن الجيش الحديث لا يعتمد على الجنود والضباط فقط ، ولكن لابد له من قاعدة عريضة من المهندسين والأطباء والفنيين والعلماء والمدرسين لتخدم أهدافه .. فوافق على إرسال بعثة للدراسة المدنية إلى بغداد .

وحينما عادت هذه البعثات ، وبدت أثارها الطيبة ، استطاعوا أن يقنعوه أنه

من الأفضل و « الأوفر » أيضا ــ وكان شحيحا بخيلا ــ أن يستدعى بعثة عسكرية عراقية إلى اليمن ، لتدرب الجيش وتعلمه هنا ، وأن يفتح كلية حربية .

وأقنعوه أيضا أن يستدعى بعض المدرسين العرب مصريين أو عراقيين لكى يعلموا فى اليمن ويفتتحوا بعض المدارس هناك وكان ذلك ميلاد العسكرية اليمنية و « الانتلجنسيا اليمنية الحديثة » وتدفق دم حار فى شرايين الحركة الوطنية .

ولم يدرك الإمام أن ذلك كان بداية النهاية بالنسبة له .

تصاعد نشاط الجمعية اليمانية ، واشتد الحوار فى صفوفها ، وحمى وطيس البحث عن أفضل طرق الخلاص ، ووصلت إلى مفرق الطرق الذى يتحتم عليها فيه أن تختار بين بديلين لا ثالث لهما ، الاصلاح فى إطار النظام أو الثورة والإطاحة به .. وانتهت إلى « أن الإصلاح والترقيع فى مثل هذه الأحوال المنقطعة النظير لن يفيد شيئا ، بل إن ضررهما أكثر من نفعهما ، فإن المريض الذى يعالج بالمسكنات إتقاء لمتاعب العملية لابد أن يلجأ إليها فى النهاية إذا كان يريد العافية وفى وطن يعيش تحت الحصار ، فإزاء شعب يتعرض للانقراض فلا خلاص بغير هذا الطريق ... إن الثورة قدر اليمنيين .

وكتبت صوت اليمن « لا مناص من الثورة لتحطيم الجدران السميكة التى تحجب عن اليمن شمس القرن العشرين ، وتهدم جدران المعتقل الكبير الذى يسجن فيه اليمنيون . إن الثورة هى الحل الأمثل ، والوسيلة الوحيدة ولا يمكن بغيرها إزالة ذلك الركام الهائل من أسباب التخلف والانحطاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى .. إن اليمن هى « المقبرة » البشرية الباقية فى العالم » .

وكان دور « الإمام » حاسما فى ذلك الاختبار ، فقد رفض كل النصائح وأصم أذنيه عن كل المشورات التى تقدم بها وألح فى عرضها كثير من رجاله والمقربين إليه ، ومن أقرب الناس إليه وعلى رأسهم إبنه سيف الاسلام ابراهيم ،

الذى تبادل معه سلسلة من الخطابات ما زالت من وثائق الثورة ، وأعرض عن كل النصائح التى قدمت له بأن أفضل الطرق لمواجهة « الأحرار » هى أن يتولى بنفسه الإصلاح وأن يسحب البساط من تحت أقدامهم .

وشن الإمام حملة ضارية على « الأحرار » وأفتى فقهاء وقضاة المقام الشريف بأنهم أشرار فجار كفار ، يريدون اختصار القرآن ، والحكم بغير ما أنزل الله ، وبغير إمام يحمى ويحرس الإسلام .

واتجه بعض الأحرار صوب ولى العهد الذى كان يضع مسوح المصلح المثقف المتواضع . وينتقد أباه نقدا شديدا ، ويتقرب من الأحرار ، حتى لقد زار عدن وأخذ يحاورهم هناك ، ويقنعهم بالانتقال إلى الشمال .. ولكنهم اكتشفوا حقيقته وأنه لا يقل سوءا إن لم يكن أسوأ من أبيه ، وأنه يقول لخاصته أنه لا يريد شيئا مثل أن يلقى الله ويداه مخضبتان بدماء العصريين » . كان يريد أن يخترق صفوف الأحرار ، ويستدرجهم لكى يخضب يديه : بدمائهم !!

ولم يترك الإمام وولى العهد « للأحرار » طريقا سوى الثورة .

وبدأ التفكير « العلمى » فى إرساء الأسس النظرية والعملية لثورة عصرية وطنية تتشرب من العالم بقدر ما تستلهم من تراث وتاريخ اليمن ، وبذلك تستطيع أن تجتث واقعه ، وأن تبدأ وتبنى تاريخا حديثا .

وانتهوا إلى وضع ميثاق يكون دليل الفكر والعمل ، ويرسى المبادىء ويفصل البرامج ، ويلزم به كل عضو ، ويقسم على تحقيقه أو الموت دونه .

ونص « الميثاق الوطنى المقدس » على « أنه لما صارت أحوال اليمن منحطة إلى حد بعيد فى أمور الدنيا والدين وبسبب الاستبداد والأنانية اللذين اشتهر بهما الإمام يحيى بن حميد الدين ، صار الغرض من الإمامة معدوما فى كل ناحية ولم

يبق غير مظاهر خادعة كاذبة لاتتفق مع موجبات الشرع الشريف ولا تضمن شيئا من الاصلاح الديني الذى يوجبه الدين فى الحال ولا تصون اليمن من أسوأ العواقب فى الاستقبال .

ولهذا اجتمع ممثلوا الشعب اليمنى على اختلاف طبقاتهم فى هيئة مؤتمر للنظر فى وضع نظام شرعى صالح وإقامة من ينفذه ويحفظ الأمن ويضبط مصالح الأمة ويقوم بكل واجب دينى ودنيوى لليمن وأهله عند وفاة الإمام الحالى .

وقد دار جدل بين ممثلى الشعب اليمنى هؤلاء حول النظام الجديد ، وهل يكون نظاما جمهوريا يلغى الإمامة ويجهز عليها ، أما أن يستمر بها وأن يختار الإمام العادل الفاضل الذى تتوافر فيه الشروط الأربعة عشر ، واستقر رأى الأغلبية على أن وعى الشعب مازال قاصرا على أن يتقبل « الجمهورية » وأن يتفهم الغاء « الإمامة » التى صاغت عقل ووجدان الجماهير ، ورسبت عميقة خلال أحد عشر قرنا ، ولهذا وضع الميثاق الوطنى المقدس شروط البيعة العصرية للإمام والتى تنص على أن تكون : « مبايعة الإمام لما اشتهر به من علم وفضل ومنزلة عالية فى نفوس الناس مبايعة دينية ناجزة إماما شرعياً شوريا على نحو ما تسير به أرقى الأمم اليوم فى العالم المتحضر وفيما لايخالف أدنى مخالفة للتعاليم الاسلامية السمحة الصحيحة » .

وتكون البيعة مشروطة بشروط « مقدسة » هى :

١ ـــ العمل فى كل قول وفعل بما تضمنه القرآن الكريم والسنة النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام وما كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم .

٢ ـــ يكون حضرته هو الإمام الشرعى ورئيس الدولة اليمانية ويكون له الحق الكامل الذى يتمتع به. الإمام المحق الملتزم بتنفيذ هذا الميثاق والشخصية التى لسائر الملوك ورؤساء الدول المستقلة فى العالم .

٣ ـ يكون نظام الحكم شوريا « ديمقراطيا » بما لا يخالف الشريعة السمحة الصحيحة من سنة الله ورسوله .

٤ ـ يقوم على وضع الدستور اليمنى لجنة خاصة يعينها مجلس الشورى « المؤقت » من أهل الكفاءة والاصلاح علما وعملا ، ويجب أن يستعين بالجامعة العربية والعتيدين من رجالها ويعرض مشروع الدستور على الإمام والذى يحيله إلى الجمعية التأسيسية المنتخبة لمناقشته وإقراره .

٥ ـ يشرع فى تأسيس حرس وطنى فى الحال من الشباب المثقف وغيرهم للإستعانة بهم على حفظ الأمن وتنوير الأفكار .

٦ ـ تبلغ الجامعة العربية ودولها ويطلب إليها المساندة والمعونة بالطائرات والقوات المسلحة ، إذا ما احتاج النظام الجديد » .

وتولت لجان خاصة إعداد وتصميم هياكل ومؤسسات الدولة « الثورية » الاقتصادية والمالية والادارية ، ولم تكتف بذلك بل تولت أيضا انتقاء أصلح الرجال لتولى الوزارة والمناصب التنفيذية الرئيسية ، ولعضوية مجلس الشورى المؤقت ولإدارة الدولة عامة ، ولم يترك أى شيء للصدفة !!

ووقع الاختيار على السيد « عبد الله بن الوزير » ليكون الإمام « الشورى » الجديد وكان عميد آل الوزير وهم البيت الهاشمى الثانى بعد آل حميد الدين ، وكان من أقطاب الدولة ، وتولى أرفع المناصب السياسية والعسكرية .. وتميز عن كل الآخرين بسمعته ونزاهته ، وتمتع باحترام وشعبية كبيرة وتم اختيار أعضاء حكومة الثورة وكبار موظفيها ومستشاريها .. ثم أعضاء مجلس الشورى المؤقت . وعلى أن تتولى السلطة بمجرد نجاح الثورة ولا يحدث أى فراغ ، وعلى أن تكون انتقالية حتى تجرى انتخابات بالاقتراع السرى النزيه ، وتنتخب جمعية تأسيسية تصدق على « الدستور » الذى يصبح أساس الدولة ..

وبدأ الاستعداد لساعة الصفر والتى تقرر أن تكون فى النصف الأول من شهر يناير ١٩٤٨ ، وتولى الاعداد والتخطيط العسكرى العقيد العراقى جمال جميل ، وكان من أعضاء البعثة العسكرية العراقية التى وفدت إلى اليمن ، ثم اختار أن يبقى وأن يتخذ من اليمن وطنا ، وأن يعتنق قضيته ، وقد تولى منصب عميد الكلية الحربية التى أنشأتها البعثة ، واكتسب احترام وإعجاب طلبته وزملائه ، وكان من أبرزهم نقيب اسمه عبد الله السلال تعلم فى بغداد ضمن أعضاء البعثة الأولى وملازمان أحدهما يدعى حمود الجائفى ، والثانى أحمد الثلايا ، كانا ضمن البعثة الثانية وكانت مهمة القوات المسلحة الاستيلاء على صنعاء وتعز وتأمينهما .

وتولى الشعبة السياسية والروحية شخصية جزائرية « فذة» هى الفضيل الورتلانى ، وكانت الجمعية اليمانية خلال بحثها عن حلفاء وسند فى العالم العربى والاسلامى قد اهتدت إلى جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ، وكانت أقرب التنظيمات إلى بعض أعضائها الذين كانوا يدرسون فى الأزهر ، وتبنى الأخوان المسلمون الثورة « القادمة » فى اليمن ، وانتدبوا « الورتلانى » ليكون المرشد العام للثورة ، وأن يجعل منها « الغزوة الأولى » والتى يبدأ بها الزحف الطويل ، لفتح العالم الاسلامى مرة أخرى !

وانتشر أعضاء الجماعة اليمانية فى المساجد والمدارس « والمقايل » وهى مؤسسة اجتماعية خاصة فى اليمن يجتمع فيها اليمنيون من كل الفئات والطبقات « لمضغ القات » كل يوم طوال ساعات مابعد الظهر .. ويعدون الرعية للحدث « العظيم » القريب وبمخاطرة شديدة ورغم عيون وجواسيس الإمام .

وتصدق على الخطة النهائية ، وعلى ساعة الصفر على أن تبدأ باغتيال الإمام فى صنعاء ويتولى ذلك شيخ كان من الرهائن قضى صباه وشبابه رهينة لدى الإمام وقرر أن يثأر لكل الرهائن ولشعب اليمن عامة . وأن يتم فى نفس الوقت اغتيال ولى العهد فى تعز العاصمة الثانية وأن يتولى ذلك النقيب حود الجائفى ومعاونوه .

وبمجرد اغتيالهما ، تستولى القوات المسلحة وتنظيمات الأحرار بقيادة جمال جميل على العاصمة صنعاء ، وتقوم بتأمينها ، ويقوم بنفس المهمة حمود الجائفى فى تعز .

وبمجرد إتمام ونجاح العمليتين ، تخطر عدن على الفور « بالشفرة » حيث تتولى إذاعة النبأ على العالم ، وتنشر مواثيق الثورة ، وتذيع إسم الإمام الجديد ، ورجال حكومته ، ثم تنتقل إلى الداخل لتولى السلطة على الفور ..

وكان كل شىء معلقا على الضربة الأولى ، وهى إغتيال الإمام وولى العهد ، ولم يكن ممكنا أن تنجح ثورة أو أن تستمر طالما ظل أى منهما على قيد الحياة .

كان الإمام شخصية مثيرة للرعب والرهبة . أحاطته كل الأساطير والخرافات ، وفضلا عن الكرامات والمعجزات ، والقدرات الخارقة التى انفرد بها دون البشر جميعا ، قام رجاله بتزييف تاريخ سياسى « وطنى » لاظهاره بأنه محرر اليمن من الأتراك ، ودرعها ضد الانجليز وحاميها من السعودية ، وأنه أول من حقق الوحدة والاستقرار ووفق بين المذاهب وصالح بين القبائل وثبت دعائم الاستقلال وحكم بشريعة الله ، وجعل من اليمن دار الاسلام الأولى والأخيرة فى هذا العصر .

ولم يكن فى ذلك ذرة من الحقيقة ، فقد انسحب الأتراك بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى ، واقتطع الانجليز أكبر قدر من أرض اليمن ، وهزمه السعوديون هزيمة منكرة ، وعاش على إثارة القبائل وإذكاء الحروب والنزاعات ، واحتفظ بأكبر عدد من الرهائن وأغلق اليمن ، وصادر كل شىء فيها لحسابه .. وعزلها تماما عن العالم .. ثم طارد الأحرار ، وتعقبهم واعتبرهم زنادقة مارقين خارجين على الدين يباح دمهم . وكانت سيطرته على السلطة مطلقة ، وكان أخطر منها سيطرته على عقول ووجدان الرعية . وتغلغل ما أشاعه من شعوذة وخرافات .

ولم يكن هناك أخطر وأسوأ من الإمام سوى ولى عهده ، ولهذا كان على الثورة أن تبدأ بالخلاص منهما ، وتحرير « الرعية » من الخوف والخرافة .

وفى اليوم المحدد وصل إلى عدن بالشفرة المتفق عليها الخبر الذى طال إنتظاره ، وأن الإمام قد اغتيل وقضى نحبه ، وشاع وذاع وتناقلته الإذاعات ووكالات الأنباء . وتنفس الأحرار الصعداء ، وغمرهم الفرح وفاضت بهم النشوة ، وسارعوا بإعلان المواثيق والبرامج والأسماء .. وبدأوا بإخطار دول العالم ـــ خاصة العالم العربى والمنظمات الدولية والجامعة العربية ـــ النبأ السعيد !! وأن دولة ثورية ديمقراطية قد انبثقت فى ذلك الركن البعيد النائى ، وأن المبادىء والمثل التى نادى بها العالم بعد الحرب قد أثمرت وأينعت فى ذلك المكان المجهول المغلق .

ولم يقدر للفرحة الغامرة أن تطول أكثر من يوم واحد ، وما لبث أن جاءت الأنباء الصحيحة تكذب ما أذيع بالأمس وأن دقة التخطيط لم تتناسب مع إحكام التنفيذ ، وأن الإمام قد نجا ، وأن المحاولة فشلت وأنه أثبت كل ما عرف عنه أنه « متصرف » لاينال منه الرصاص ، وأن الله يكتب له النجاة دائما من الجناة البغاة .. وأقيمت البشائر والطقوس فى العاصمة وفى أرجاء اليمن للحمد والشكر على نجاة الإمام .

وصعق الأحرار والثوار فى عدن ، خاصة وأن عدداً غير قليل منهم لم ينتظر ورحل على الفور إلى الشمال .. ولم يخالجهم شك أن اليمن سوف تشهد أكبر مذبحة وحمام دم عرفته ، وأن الإمام لن يترك أحدا من الأسماء التى أذيعت ، بل وأن آلافا من ر قاب كل من يشك فى انتمائه أو صلاته بالجمعية اليمانية سوف تتساقط .

وساد الاضطراب ، وأصبح لابد من إجراء عاجل « مستميت » لدرء الكارثة . وإنقاذ الثورة ، وسارع الإمام الشورى الذى عرف برباطة الجأش ،

وقابل الإمام ، ونفى له كل ما أذيع فى الخارج وأنه محض أساطير ، ومؤامرة كبرى محكمة الأطراف ، للإيقاع بينهما ثم للايقاع بينه وبين الأحرار وللخلاص من أفضل رجال اليمن ، وأنه لابد وأن هناك أيادى شريرة دبرت كل هذا ، وتأكيدا لذلك جدد له « البيعة » وأعلن ذلك أمام الله والناس !

وحذا حذوه كل من وردت أسماؤهم فى القوائم فى الداخل ، أو من تعجلوا الذهاب إلى الشمال .

وبدا أن الحيلة قد جازت على الإمام وأنه صدقها وأكد لهم ذلك وحمد الله على إخلاصهم وولائهم ، ولكن أقطاب الحركة لم ينخدعوا ولم يخالجهم شك فى أن الانتقام المروع سوف يبدأ حين يستكمل الإمام عدته لذلك ، وأن معركة حياة أو موت قد بدأت بين الطرفين ، وأن لامناص من أن يقضى أحدهما على الآخر .

لم يعد هناك بد من إعادة الكرة مهما يكن الثمن ، وأن يتم الخلاص من الوحش الكبير ثم الصغير ، لأن فتكهما باليمن هذه المرة سوف يكون شاملا .. وأعدت الخطة بحيث لاتخيب هذه المرة وتولاها نفس الشيخ القردعى والحلقة التى فشلت فى المرة الأولى . وبعد شهر من الاستعداد تحددت ساعة الصفر فى ١٧ فبراير سنة ١٩٤٨ ، ونجحت المهمة وأخطرت عدن بعد أن تأكد النبأ . وأذيع مرة أخرى على العالم معززا بالأدلة وشهادة الشهود العيان ، ومضى التنفيذ فى طريقه ،

وأعلن عن الإمام الشورى ، عبد الله بن الوزير ، وتمت له البيعة وتولى الإمامة ، وأعلن عن الحكومة الجديدة التى تولت السلطة وعن مجلس الشورى الذى انعقدت أولى جلساته . وخرجت إلى العالم اليمن الثورية الديمقراطية ، وأهتز العالم طربا « وعجبا » لهذا الحدث الفريد من نوعه .. والذى أثبت أكبر من أى حدث آخر أصالة ثورات التحرر الوطنى والاجتماعى التى عمت الشرق المستعمر المستعبد !!

وفاضت الفرحة بشعب اليمن وتوافدت جموعه وقبائله ، تهنىء الإمام العادل الشورى والعهد الجديد ، وتؤكد ولاءها وتأييدها ، وبعث الإمام برسائل إلى كل أشقائه من الحكام العرب والمسلمين ، يبين لهم أسباب الثورة وأهدافها ، وأنه لا يشك لحظة أنها سوف تحظى بتأييدهم وبكل ما يستطيعون تقديمه من عون ومساعدة .

وتعلقت كل الآمال بالجامعة العربية ، وأنها سوف تكون طوق النجاة الذى يحتمون به . بل ولن تبخل عليهم بما يحتاجونه ، وأنهم سوف يردون لها الجميل ، سوف تكون اليمن قاعدة متحررة للعروبة والاسلام .

وكان الفضيل الورتلانى بحماسه الفياض قد أقنعهم أن جماعة الإخوان المسلمين بما لها من قوة ونفوذ سوف تثير الرأى العام المصرى والعربى والاسلامى . وسوف تجند كل قواها لكى تساند الثورة وتدفع عنها أى سوء .. وبالغت الجماعة ومبعوثها فى تقدير إمكانياتها ، وكان ذلك طابع لكل أفعالها ..

وكان أول من بعث لهم برسالة وُدٍّ وإخاء الجار الكبير فى الشمال الملك ابن سعود ، وقد طمأنه أن اليمن الجديدة سوف تحرص على حسن الجوار وتحفظ العهود ، وسوف تجد المملكة فيها خير صديق وحليف ، ونصير للعروبة والاسلام .

وكان الإمام الجديد ، يعرف مدى ماكان يحمله الملك من كراهية ومقت للإمام وولى عهده ، ولكل بيت حميد الدين ، وأن كل همه كان الخلاص منهم ، وتنصيب إمام من أسرة أخرى يكون مهادناً ومواليا للمملكة ، وأكد له الإمام الجديد أنه سوف يكون عند حسن ظن الملك تماما ..

وفوجىء « الإمام » المتفائل المستبشر بالملك يرفض اليد التى مدها إليه .. وأنه قرر إعلان القطيعة والحصار على النظام الجديد ، وأنه انتهى إلى أنه مهما كان

الأمر فى الماضى ، إلا أن سيف الاسلام أحمد بن يحيى حميد الدين ، أهون شرا وضررا من الإمام الشورى عبد الله بن الوزير ، والذى يستمد سلطته من ثورة ، وسوف يحكم بالدستور ، كان ذلك سابقة خطيرة وتهديدا لكل الملوك والعروش ، ولابد من القضاء عليه فى المهد .. وبكل حزم .

ولم يستثر الاخوان المسلمون ، جموع العرب والمسلمين تأييدا للثورة ، ولم « تنهال » المعونات والمساعدات على رجالها ، ولم تهب الجامعة العربية فى القاهرة لتقف مع الشعب الذى خلع نير الطغيان ، ولم تهرع الجامعة الاسلامية فى كراتشى لتشد أزر الشعب المسلم المقهور الذى نفض عنه البدع والخرافة ليطبق الاسلام الصحيح .. وعلى العكس تماما . قابلت الجامعة العربية الحدث بقلق وبرود .. كان الملوك والحكام لا يرحبون بثورة تخلع عرشا وحكما ، وكانت الجامعة الاسلامية تحت هيمنة باكستان ربيبة البريطانيين .. ومارس الملك كل نفوذه وكان واسعا فى الجامعة العربية والاسلامية ، وتداعت آمال الثورة فى التأييد والمعونة « الأخوية » من أشقائهم فى العروبة والاسلام ثم مالبث أن ساورهم القلق إذ أخذ يطبق عليهم الحصار ..

وكانوا قد غفلوا عن ثغرة جسيمة مالبثت أن أصبحت قاتلة مميتة وهى الفشل فى إغتيال ولى العهد ثم فراره إلى الشمال إلى « حجة » قلعة الإمامة والزيدية وعلى حدود المملكة . وقد نجا من القتل وسارع إلى موطن القبائل الموالية ، وبدأ فى استثارتهم للثأر لإمامهم الذى قتله عملاء النصارى واغتصبوا الإمامة ليحكمها الكفار والفجار ..

واستجابت القبائل وهرعت لتلبى نداءه ، وكشف ذلك عن فراغ كبير لم يلتفت إليه الأحرار وهو العمل بين القبائل . إنصب كل جهدهم ودعوتهم على المدن وعلى الشرائح العليا والوسطى والمثقفة ولم تنفذ أو تتغلغل فى قلب وصميم

اليمن فى القبائل ، خاصة أشدها تخلفا وشراسة فى الشمال . حيث ظل الإمام هناك ولى الله وظله على الأرض .

وانهالت أكياس الذهب والأسلحة على الإمام أحمد من جاره فى الشمال والذى أصبح سنده الكبير ، وقرر الزحف إلى صنعاء .

ولكى يستحث الإمام زحف القبائل إلى العاصمة وحتى تتسابق كل القبائل فى الوصول ، أعلن عن استباحة المدينة للجميع لمدة سبعة أيام ، وكانت أثمن جائزة يمكن أن يقدمها ، وكانت صنعاء بالنسبة لقبائل الشمال البعيدة التى لا تعرف عنها إلا مايروى من أساطير ، تزخر بالقصور والكنوز وأجمل الجوارى والنساء ..

وزحفت الجحافل يقودها سيف الاسلام الحسن ، شقيق الإمام وصِنْوه فى العطش إلى الدماء وحوصرت المدينة من كل الجهات ، وقاومت حتى النفس الأخير بقيادة جمال جميل ورفاقه ، ولكن مالبثت المقاومة أن تصدعت من الداخل ، وخارت عزيمة الكثيرين ، وأطبقت وحوش البرارى الزاحفة على المدينة ونزل بها الهول الذى لم ينزل مثله بمدينة إلا بغداد ــــ حين زحف التتار بقيادة هولاكو .. وظلت المأساة ولم تمح قط من ذاكرة اليمن .

قال أحد الشهود :

« دخل صنعاء قرابة ربع مليون من القبائل لا هدف لهم سوى النهب وتدمير العمران دخلوا مسلحين بالبنادق والسيوف والفؤوس والمعاول ، وكان كل مايسعون إليه الأموال والذخائر والكنوز والتى كانت تزخر بها صنعاء واندفعوا يهاجمون البيوت والمتاجر والأكواخ والمساجد ملتهمين كل مافيها ، متناحرين فيما بينهم ، واستمرت الهمجية ليلة السبت وسبعة أيام حسوما » .

وكتب مؤرخ معاصر :

« وقعت صنعاء تحت وطأة حصار قبلى مكثف رهيب سرعان ماتحول إلى عملية إجتياح متوحشة أتت على الأخضر واليابس إذ نهبت القبائل كل ماكان يعيش بين ظهرانيها ، وقتلت كل من اعترض سبيلها ووقف مدافعا عن ماله وعرضه ، وعاثت القبائل بصنعاء كما لم يَعِثّ بها أحد طوال تاريخها ، حتى من أفتك وأشرس الغزاة » .

وسقطت الثورة بعد ٢٦ يوما فقط من السلطة ، وكانت ضحية الغدر الخارجى . أكثر مما كانت ضحية أخطائها ، ولكنها أصبحت الدرس الأول الذى ترسب فى الأعماق .

واستعاد الإمام الناصر لدين الله أحمد بن يحيى حميد الدين عاصمة ملكه وجلس على عرش أبيه ، وبدأ تحقيق حلمه بأن يخضب يديه بدماء « العصريين » والأحرار .

إعتقل الآلاف وازدحمت بهم كل سجون الإمام ، وكانت أقبية حالكة الظلام تحت الأرض فى معظم الأحيان ، أو قلاعاً قديمة موحشة ونائية ، وكان السجناء ، وهم أفضل رجال وشباب اليمن يساقون إليها جماعات مكبلين بالأغلال والقيود فى أعناقهم وأيديهم وأرجهلم ، ومربوطين فى الحبال . ويطاف بهم فى الشوارع حيث يلتف عليهم السفلة والرعاع ، ويلعنوهم ويبصقون عليهم ، ويقذفونهم بالأحجار والأوساخ « قتلة الإمام » عملاء الأجانب و « النصارى » .. ويحملون على لوريات نقل قديمة أو يسيرون مئات الأميال على الأقدام وفى أقسى الطرق وأشدها وعورة .. وبلا ماء أو غذاء ..

ويبدأ طور آخر من التعذيب والتنكيل داخل السجون يتولاه « زبانية » تخصصوا أو تفننوا فى ذلك ، ويستمر ذلك حتى تحين ساعة الإعدام .

وكان الإمام يتلهى ويتلذذ بمراجعة القوائم . واختيار من يريد من الأسماء ،

ويحرص على أن يشهد التنفيذ ، وأن يتشفى من الضحايا فى اللحظات الأخيرة ..

وقال أحد الشهود والذى نجا من المذبحة :

« نزل بطش الإمام أول مانزل بآل الوزير الإمام عبد الله بن الوزير ، ثم الأمير على بن عبد الله بن الوزير ، ثم حاكم المقام محمد محمد الوزير ، ثم محمد على الوزير ، وعبد الله محمد الوزير ، وحينما فرغ من آل الوزير ، استدار على من كانوا فى سجن نافع ، وكان يطلب كل يوم منهم جماعة . وكانت فرقة الموسيقى تأتى تحت نوافذ السجن كل صباح وتدق الطبول وتعزف نشيد القتل ، فإذا سمعناها تجهزنا للطلب ، وكان أبطال الثورة يخرجون وكأنهم يزفون إلى عرس ، ومهما نسيت فلا أنسى حماس أحمد حسن الحورش وهو يغادر السجن إلى المقصلة ويقول إلى اللقاء فى رحاب الله يا إخوانى ويقفز درجتين فرحا ، ثم محيى الدين العنسى وهو ينشد شعرا ، ولما دعى القاضى أحمد العنسى خرج من الزنزانة ولكن قال له أخوه محيى الدين لست المدعو يا أخى إنما المدعو هو أنا واعترف السجان بخطئه بدعوة القاضى أحمد وخرج محيى الدين كالأسد من عرينه » .

وكان الإمام حريصا على أن يشهد الإعدام فى الميدان الكبير ، وكان يفيض سعادة وطربا كلما أطاح السياف برقبة أحد الأحرار ..

ولم يمكنه أى منهم من التشفى بل أفسدوا عليه متعته فى كل مرة « وحينما أراد السياف أن يعصب عينى الشهيد الشايف حتى لايرى السيف نهره بكل شجاعة وبأس قائلا : أبعد الرباط إنما الموت فى هذه الساحة للرجال » .

ولما نودى على المفكر الأديب أحمد المقالح خرج إلى ساحة الإعدام مكتوف اليدين مكبل الساقين ووجد أمامه الأمير مطهر بن يحيى شقيق الإمام والأمير محمد بن أحمد بن يحيى نجله ، وكانا ينتظرانه للتشفى فبصق فى وجهيهما وقال : « لاتزال هذ الشجرة الخبيثة تلاحقنى حتى فى هذه اللحظات المقدسة » .

وكان عبد الوهاب النعمان أكبر الأحرار سنا وقد زج به الإمام يحيى فى السجن وبقى فيه عشرين عاما طويلة ، وما أن خرج حتى انضم للثوار ، وعندما نودى به إلى ساحة الإعدام ابتسم وقال : « يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية » .

وأرسل الإمام إلى نورى السعيد فى العراق يستأذنه فى إعدام « جمال جميل » ولم يتأخر عنه الإذن ، وأعدت ساحة خاصة وجاء الإمام وكل حاشيته ورجال الدولة ليشهدوا إعدام الرجل الذى إعتبره رأس الأفعى ، واستشهد رافع الرأس ونظر باحتقار للإمام ورفض أن يرد على بذاءاته .

وأقيمت الصلوات فى أنحاء البلاد ابتهاجا بانكشاف الغمة والقضاء على الفتنة واستئصال الكفار الفجار .

ودعا الفقهاء والقضاة الله أن يحفظ اليمن دائما لأنه أسعد دولة مستقلة مستكملة لشرائط الدين الاسلامى . ، وقد تفضل الله بتمهيد اليمن وتأسيسه بفضل رجاله ، وصانه الله من عدوان المعتدين وحفظه من المستعمرين !

الصحــوة

تدخلت قوى التاريخ وقوانينه لترفع بعض البلاء عن شعب اليمن وعن العرب عامة .

قامت الثورة فى مصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وكانت إعصاراً هبّ فجأة وأطاح بأقوى العروش العربية وبكل « سادات وأشراف » مصر وفى ليلة واحدة وبضربة قاصمة .

وطرب كل الثوار والأحرار العرب واستردوا بعض الثقة ، وخاصة فى اليمن .

وقد انبثقت الثورة المصرية بعد فترة يأس طويلة حالكة فى العالم العربى ومصر خاصة بعد مأساة الثورة فى اليمن بأشهر قليلة وقعت المأساة العربية الكبرى فى فلسطين ، واغتصبت الأرض وطرد الشعب وقامت دولة فاشية عنصرية مدججة بكل أنواع السلاح وأصبحت سيفا مسلطا على رقاب العرب جميعاً .

وفى مصر أعلن الكفاح العام لطرد الاحتلال الذى دام أكثر من سبعين عاما وبعد معركة دامت عامين هزمت قوات التحرير ، وانتهت بحريق القاهرة ، الذى التهم العاصمة العريقة ، وكان جلالة الملك « فاروق » شريكا فى تدبيره كما اعترف عليه وزير داخليته بعدئذ . وبعد الحريق أقال جلالته الوزارة الوطنية الوفدية ، وتولى كل السلطات وأعلن الارهاب وبدأ التنكيل بكل الثوار والأحرار

وحشدهم فى المعتقلات والسجون ، وبدأت محاكماتهم بتهمة « إحراق القاهرة » !!

وكان يستعد ويخطط لإنقلاب « ملكى » عسكرى يلغى به الدستور والأحزاب ويحقق حلما قديما لديه أن يكون ظل الله على الأرض وأن يحكم بارداة الله ونائبا عنه ، وقد أثبتوا له أنه من نسل رسول الله ؟

وهبت الثورة وأطاحت به وبالأسرة والنظام والباشوات والبكوات . وخرجت الثورة من قلب الجيش « الملكى » الذى كان يطمئن ويثق أنه قوته الضاربه وحرسه الخاص .

كانت الثورة درساً لكل الشعوب ، أن لا تيأس وأن كل شعب لابد وأن يبدع طريق خلاصه مهما تكالبت المحن .

وكان شعب اليمن وأحراره بلا شك أفضل من يستوعب ذلك !

وفاجأت الثورة المصرية وأثارت كل النظم العربية الحاكمة خاصة الملكية ، ولكنها فى البداية ترددت فى موقفها فهل يكون الحصار والتحدى أم المهادنة ثم الاحتواء .. ولم يكن لها خيار واستقرت على البديل الثانى .

وكان أشدهم قلقا ودهاء إمام اليمن فقد عاش آل حميد الدين وقهروا الزمن بتسخير كل المتناقضات وامتصاص كل الصدمات والمناورة بين كل الأطماع . وقد عقد الإمام يحيى معاهدات ومواثيق مع تركيا العثمانية ، وروسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية ، وبالطبع مع بريطانيا وفرنسا الاستعماريتين ، بل ومع هولنده وبلجيكا ولكن لم ينفذ تأثير أى منهم على المجتمع المغلق وبدا أن لديه أحزمة واقية تمتص كل أثر وتبدده .

وأدرك الإمام أنه لا مناص من شىء من التعديل فى القاعدة وأنه لم يعد هناك مناص أن يفتح بعض النوافذ لأن الرياح عاتية وسوف تدخل شاء أم أبى ، وقد

تكسر كل الأقفال وتقتلع « المزالج » إذا ما أصر على الانغلاق .

لم يعد هناك ما يمكن أن يصد إذاعات القاهرة . وخاصة الإذاعة التى اخترقت كل الحدود والحواجز « صوت العرب » وأصبح مستحيلا أن يمنع أحد من الاستماع إلى خطب الزعيم الشاب الذى ألهب خيال كل شباب الأمة ، وتعذرت مصادرة الجرائد والمجلات والمطبوعات التى تسللت ثم غمرت الأسواق والمكتبات .

ووجد زعماء الأحرار ، وأقطاب الجمعية اليمانية ملاذا عربيا آمنا فى القاهرة واستطاعوا منها أن يخاطبوا جماهير اليمن فى الشمال والجنوب ، ولم يعودوا مراقبين محاصرين فى عدن فى إطار تقلبات السياسة البريطانية ، أو بعيدين فى كراتشى لايتحركون إلا فى إطار الجامعة الإسلامية « الأمريكية » .

أدرك الإمام الذى لم يفتقر قط إلى الدهاء والذكاء أن لا مفر من الانحناء ولو لبعض الوقت لتمر العاصفة ، وحتى يمكن احتواؤها .

وأوكل الإمام سياسة التفتح على القاهرة إلى ولى عهده وابنه المفضل محمد البدر ، والذى اختاره من بين أبنائه ووضع فيه ثقته وحصل له على البيعة ، وكان أفضل من يرسم حدودها ويضعها تحت رقابتها الدقيقة ، وأنه لايغفل لحظة عما يمكن أن تؤدى إليه من عواقب .

ووضع مسوح الأمير المصلح المستنير الذى يريد أن يبدأ عصرا ويصنع تاريخا جديدا لليمن . وأعلن نهاية الحصار المضروب حول اليمن ثقافيا وسياسيا واقتصاديا واستراتيجيا .. كل أنواع الحصار ، وبدأ يتقرب للمعارضة ويختلط بالشباب كواحد منهم بل وفى طليعتهم ، وساعده أبوه بلفتة « إمامية » وأفرج عن خصمه اللدود وأحد مؤسسى « حركة الأحرار » وأول أقطابها محمد أحمد النعمان ، وعينه أستاذا ومستشارا لولى العهد ، كما أفرج عن عدد من الأحرار الذين ألقى بهم فى

غياهب السجون ونسى أن يطيح برقابهم !!

وبدأت البعثات التعليمية اليمنية تتوافد على القاهرة ، وكانوا شبابا صغارا فى سن التكوين توزعوا على المدارس والمعاهد وأعدوا للالتحاق بالجامعات ، وآخرين توزعوا على المدارس والكليات العسكرية وأعدوا ليكونوا ضباطا ، وعاشوا جميعا المد الثورى الذى تدفق فى القاهرة ، وفاض إلى كل الوطن العربى .

واستدعيت لليمن سلسلة بعثات تعليمية مدنية وعسكرية ، أشرفت على إنشاء وتدعيم المدارس الابتدائية والثانوية والعمل بها ، وإرساء مناهج تربوية قومية تعد جيلا جديدا عصريا .

وكان أهم ماقامت به إنشاء مركب من الكليات العسكرية ، الكلية الحربية ، كلية الطيران ، كلية الشرطة ومدرسة الأسلحة ومدرسة ضباط الصف . وذلك لتكوين عسكرية يمنية تبنى قوات مسلحة متكاملة ، ولتكوين نظام أمن ، يرسى أسس سيادة القانون وحماية المجتمع ..

وتفتحت اليمن لأوسع مدى على العالم المعاصر ، بل وذهبت أبعد بكثير مما فعلت جاراتها دول شبه الجزيرة ، وتبادلت اليمن بالثقة الإمامية التقليدية العلاقات مع دول « النصارى » الغربية ، ودول المشركين الآسيوية الأفريقية ودول « الملحدين » فى روسيا والصين وشرق أوروبا ، وأصبح سمو الأمير البدر « نموذجا » ومهندس اليمن « التقدمية » وطاف معظم عواصم العالم يبشر بميلادها !

وكانت الثورة المصرية قد حطمت الحصار الاستراتيجى الذى كان مفروضا على العرب ، وحصلت على الأسلحة الحديثة وتبنت القوات المسلحة العصرية وكسرت الحصار السياسى ورفضت الأحلاف الغربية ، وذهبت إلى باندونج لتكون فى طليعة بناة العالم الثالث . وقوضت الحصار الاقتصادى والتكنولوجى وقررت

بناء السد العالى وتصنيع مصر واللحاق بالثورة النووية والألكترونية وأزاحت كل أستار الحصار الثقافى وفتحت كل النوافذ وليدخل كل هواء نقى من الشرق والغرب والعالم « الجديد » الثالث ، ويدعم شخصية العرب ويثرى حضارتهم .

وكان لابد لليمن أن تحذو نفس الحذو ولا تتخلف .. ولو إلى حين . ولكنه كان تفتحا تكتيكيا فى جوهره يريد به الأمير والإمام استيعاب الخطر وتسخير موازين القوى فى مواجهة الرياض وواشنطن .

ولكنهما لم يستطيعا مع ذلك ضبط حدود « اللعبة المزدوجة » واختلطت وتعدت الحدود التى كانا يريدان أن تقف عندها وتتخطاها .

الثورة تتهيأ للجولة الثانية

ازدهرت طلائع جيل يمنى جديد ، نما وترعرع فى أقصر وقت ممكن وتشرب وتشبع بعقائد ومذاهب وثورات العصر ، وانهمك باحثا عن طريق خلاص سريع ، ينتشل اليمن من أعماق الجب المظلم الذى يرسف فيه الشعب .

وكان وميض النار الذى خلفته الثورة الأولى (١٩٤٨) مازال متقدا تحت الرماد ولم تنطفىء جذوته ، وبدأت الحرارة تتصاعد وتنطلق شرارة هنا وهناك .

إنزاحت بعض سحابة اليأس الكثيف الذى خيم منذ الفشل الكبير . وبدأت صفوف المعارضة تلتقى وتتجمع خاصة وقد أفرج عن كثير من أقطابها ، وبدأت تستعرض تغير الأحوال وتطور الأحداث ، وتحول موازين القوى . وبدأت تراجع وتبحث وتدقق ، هل حان الوقت لجولة ثانية ، وللثأر للهزيمة الأولى ، وهل توافرت مقومات ضربة قاصمة لاشك فى فوزها ؟

لقد مالت كل الموازين الداخلية والإقليمية والدولية لصالح التغيير الجذرى والثورى . وقد تطعمت المعارضة وتدفق إليها دم حار فتى من المثقفين والعسكريين

فهل آذنت الساعة ؟ !

وبينما كان الجدل والبحث دائراً سبقت الأحداث . ووقع اشتباك فى قرية صغيرة بالقرب من مدينة تعز بين الجنود وأهالى القرية ، وقتل فيه جندى وحمل الجنود جثته وساروا فى مظاهرة إلى مقر الإمام .. وطلب الإمام قائد الجيش وطلب إليه أن يذهب بجنوده لتأديب أهل القرية وشاعت القصة فى المدينة ، ولدهشة الجميع فجرت بركان الغضب المكبوت واستعاد الجميع فظائع الإمام وكيف يسخر الجيش لقهر الشعب ويخلق الخلافات والصراعات بين كل فئة والأخرى ، وأن لابد من وضع نهاية لذلك وانتفضت المدينة بغلمانها وقضاتها وتجارها وجماهيرها ، وانضم الجنود والضباط الذين رفضوا تنفيذ الأمر ، وقرر الجميع أن الوقت قد حان للخلاص من مصدر كل الشرور وهو الإمام ، وبعد أن بحثوا الأمر واستعادوا عظات وعبر الماضى قرروا عزله ومبايعة إمام آخر .

وكان الدرس الرئيسى الذى استخلصه المجتمعون من فشل الثورة أنه لاينبغى إغتيال الإمام ، وإن تهيأ الفرصة لأحد أن يستصرخ القبائل للثأر « لدم » الشهيد وسليل زيد بن على . وأن الأفضل هو اعتقاله حتى يحاكم ويجرى التصرف فى أمره « ديمقراطياً » ، وأمام جماهير الشعب . وتم اختيار الإمام الشورى ، كان شقيق الإمام السيف عبد الله والذى اشتهر بحكمته وحنكته ، وقام العقيد الثلايا بتوجيه الضربة وتم تنفيذ الخطة ، واعتقل الإمام فى مقر تعز ووقع وثيقة التنازل لأخيه وأعلن عن الإمام « الشورى » عبد الله ، وباركت الجماهير وهللت الجموع ، وأعلنت القبائل الولاء .

لكن لم يقدر للفرحة أن تدوم أكثر من سبعة أيام واستطاع الإمام ، بدهائه أن يخدع حرسه وأن يقتحم الجماهير المحاصرة للقصر ، وأن يفر نحو قبائل الشمال وأن يؤلبها على أهل الغدر و « الخيانة » وعملاء النصارى ، الذين أرادوا القضاء

عليه .. رغم ماقام به من إصلاح !!

وتكررت المأساة وقرر الإمام « السفاح » أن يضيف إلى سجله الغارق فى الدماء فصلا آخر .

واحتشدت الجموع فى الميدان الكبير فى صنعاء لتشهد طريقة جديدة ابتكرها الإمام وجلادُوه فى قطع الرؤوس ، وكيف يسومون الضحية سوء العذاب ولتكون آخر لحظات حياته أشدها هولا ، وتقرر أن تبدأ التجربة فى العقيد « الثلايا » وشركائه .. ويقطع الرأس على مهل ليترسب الدرس فى نفوس كل من تحدثه نفسه بالسوء ..

وصمد الشهيد ورفاقه وضربوا مثلا يعيش فى ذاكرة اليمن فى اللحظة المقدسة وعاشت صورة « الثلايا » تحت سيف الجلاد فى ضمير كل يمنى تلهمه ولا ترعبه !!

وسيق حشد من رجال المعارضة شبانا وشيوخا ومدنيين وعسكريين ، وتقليديين وعصريين إلى مقابر الأحياء فى سجون وقلاع الإمام ولكى يتسلى كل يوم وليلة ، بانتقاء بعضهم لساحة الإعدام « وتجربة العذاب المبتكر » !!

وعاد اليأس ، والظلام ليلقى غُلالة كثيفة على النفوس ، وتفاخر الإمام وزها بنصره على « الكفار » وانطلق جيش من المشعوذين يؤكد أن الإمام مازال معصوماً وأن أحدا لايمكن أن يصيبه بسوء .

وفى سنة ١٩٥٩ سنحت فرصة لم ولن تسنح فى تاريخ اليمن من قبل ، إذ تقرر أن يسافر الإمام لأول مرة إلى الخارج للعلاج ، اشتدت عليه وطأة المرض وكان مدمناً للمورفين والمخدرات ، وأشار الأطباء عليه بالعلاج فى الخارج ، وخيروه بين القاهرة وأوروبا واختار بلاد النصارى وعاصمة عواصمهم فى « روما » وسافر إلى هناك ، ورأت المعارضة أن هذه الفرصة لايجب أن تضيع وأن لا بد وأن يكون

خروج الإمام هو نهايته وأن لا يجد عرشه بل ساحة الإعدام إذا مافكر أن يعود .

واستؤنف البحث والنقاش ، وعادت الصفوف لتتجمع وكان قد اعتراها الخلاف ودبت فيها الفُرقة إزاء الفشل الأخير ..

وانتهت المعارضة إلى أن أسباب الفشل فى جوهرها تعود إلى أمرين ؛ أولهما قضية « الإمام » وأنها لم تعد استبداله بإمام آخر « شورى » أو أفضل ، فطالما بقى « النظام » فإن الشجرة الخبيثة التى تُحدث الأزمة تظل قائمة وتثمر أئمة أسوأ ، وأن الخلاص لابد وأن يبدأ بالقضاء على « الإمامة » واقتلاع جذورها ، واستبدالها بنظام آخر .. ولأول مرة برزت صريحة وآنية « الجمهورية » بديلا للإمامة ، وأن تؤقلم وتُعدل لتناسب واقع اليمن .

والسبب الثانى هو « القبائل » فطالما استطاع الإمام أن يؤلب أو يشترى قبائل ، وأن يضللها فلا أمان للثورة أو للتغيير مهما كان ، ولابد أن يبدأ العمل بتحييد أو ضمان ولاء أكبر عدد من القبائل وأهمها .

ونجحت المعارضة فى استقطاب مشايخ أقوى قبائل الشمال ، حاشد وبكيل وكانوا قد ضاقوا ذرعاً بالإمام وخافوا على مصيرهم من فرط كراهية الشعب لهم ، ومن حسابه المحتمل على فظائعهم . وانضم مشايخ القبائل الكبار إلى حلف المعارضة .

وكان السبب الثالث هو الجيش ، وطالما بقى الجيش بعيدا ، وفى قبضة الإمام ويستطيع استخدامه ضد القبائل أو ضد الجماهير فلا فائدة ترجى ، ولابد من استقطابه ، وكان الجيش يفيض سُخطاً وعضباً منذ إعدام قائده « الثلايا » والذى كان يتمتع بالاحترام لكفاءته ووطنيته ، وترك إعدامه وبالطريقة الفظة التى تمت بها ، وقد وقف الإمام قبل إعدامه يتشفى فيه ويمن عليه بما أراه الله . ورفض أن يرد عليه ومات رافع الرأس ..

واستطاع المخططون ، ضم قادة الجيش وضباطه الكبار ، وتكون حلف لأول مرة يضم الأحرار والقبائل والجيش ، وقاموا بحسابات أدق حتى لايتركوا ثغرة .. وأجمعوا على أن يعلن « مجلس جمهورى » يعلن إلغاء الإمامة وتولى المجلس كل السلطات حتى يتم وضع ميثاق وطنى « مقدس » جديد وجمعية تأسيسية ، تتولى وضع دستور وإرساء أسس الدولة ، الجمهورية الجماعية ، وتولى قيادة « الانقلاب » شيخ قبلى هو حسين الأحمر شيخ قبائل حاشد أقوى قبائل الشمال وابنه حميد بن حسين الأحمر وكان من الشباب المثقف المستنير اجتذب حوله الطلائع المثقفة .

وكان أكثر المحاولات شمولا وأدقها تنظيما وأكثرها تفاؤلا ، لم يبق للإمام من يمكن أن ينحاز له أو يحميه .. كل القواعد والقوى التى كان يعتمد عليها .. انحازت إلى الثورة .. ولم يكن هناك شك فى النجاح . وقبيل ساعة الصفر بقليل فوجىء الجميع بعودة الإمام وبدا أن جواسيسه قد أبلغوه فى روما بما يدبر فى البلاد وسارع بالعودة ، وبدا بمجرد وصوله أن الإدمان قد فتك بقواه العقلية ، فقد نزل من الباخرة وطلب حصانا ركبه وشهر السيف ، وطلب من يتآمر ضده أن يتقدم لينازله ، وأخذ يصرخ وينادى بالويل لمن جرؤ على ذلك فى غيبته ، بدا أن إعلان شعار الجمهورية ، وإئتلاف القبائل والجيش والأحرار قد ذهبت بما بقى من صوابه . وتزعزعت أركان الخطة بعودة الإمام وانهارت عزائم كثيرين واستولى عليهم الرعب ، وانقسمت الجبهة .. ووجد الإمام قبائل تنحاز له كالعادة . وتعثرت المعركة قبل أن تبدأ ، وانتصر الإمام ، وانصب أشد الهول على القبائل « الجمهورية » ومشايخها وأبنائهم .. وبدأ بحسين الأحمر وابنه زعماء الإنقلاب وتكررت نفس الدورة .. وكانت هذه المرة مذبحة سفاح مجنون يدرك أن أعداؤه بلا نهاية وفى كل مكان ولابد أن يقضى على كل من تحوم حوله أى شبهة حتى لا يقضوا عليه !! وبدا لكثير من أقطاب المعارضة أن كل الطرق قد سدت ، وأن لا

أمل ولا رجاء .. ولا جدوى من الكفاح وربما صح القول أن اليمن محكوم عليها بالبقاء خارج التاريخ وأن الإمام « مُحجب » معصوم تحميه الملائكة والشياطين معا .

مواكب الشهداء مستمرة ...
والشرارة لا تنطفىء

طفح الكيل بثلاثة ضباط شبان فى زهرة العمر ، وقرروا أن يكسروا حاجز اليأس الذى استبد بالنفوس ، وأن يطلقوا شرارة تضىء فى حلكة الظلام .

كانوا يكونون خلية من خلايا بدأت تتكون تلقائيا فى صفوف القوات المسلحة اليمنية وتضم جزراً صغيرة هنا وهناك ، تبحث عن مخرج لليمن .

واتفقوا على أن الحل هو عمل مدوى تتجاوب صداه فى اليمن من أقصاها إلى أدناها ، ويزلزل أركان الطغمة الطاغية ، ويرد الثقة والأمل لمن فقدوهما . وقرروا أن يبدأوا بقطع رأس الأفعى ، لتنطلق الجماهير بعدئذ لتجهز على كل الأفاعى وكان الإمام يتردد على مستشفى الحديدة لإتمام العلاج ، وكمنوا له فى إحدى ردهات المستشفى وفاجأوه بسيل من الرصاص ، وأفرغوا إحدى عشرة رصاصة فى جسده ، وسقط مضرجاً بدمائه وانهالوا عليه وداسوه بأقدامهم ليبطلوا كل زعم بقداسته أو عصمته ، وخرجوا مطمئنين إلى أنه قد انتهى وما على المعارضة إلا أن تدعو الناس لتستكمل مسيرة الحرية ، ولذهولهم ولذهول الناس جميعا فى اليمن وخارجها لم تكف أحد عشرة رصاصة للقضاء على الإمام ، ووقف على قدميه ثانية « دراكولا » مثخنا بالجراح غارقا فى الدم ، واستخرجت تسع رصاصات وبقيت اثنتان عاش بهما مابقى من حياته .

ودارت آلة الانتقام واتجهت كل الشبهات الى الجيش الذى كان الإمام وولى

العهد يضعانه تحت رقابتهما الصارمة ويعدانه لحماية العرش واسترداد الأرض ، وانصب عذاب الجحيم على « الضباط » وأن لابد أن لهم رؤساء وشركاء ، ولابد وأن عليهم يعترفوا عليهم ، وانتحر أحدهم وصمد آخرون .

وكانت بطولة « الملازم اللقية » قائد المجموعة وصموده خلال التحقيق والمحاكمة من ملاحم الفداء فى تراث الثورة اليمنية ، وقد نزل به العذاب الأكبر وكان يتولاه فى بعض الليالى ولى العهد بنفسه وكان يغرز سيفه فى جسده ويبقيه حتى يعترف على شركائه ، وكانت الشبهات تتجه إلى قائد ميناء الحديدة العقيد عبد الله السلال ، وكانت شبهات صحيحة إذ كان يعرف مقدما عن العملية وشجعهم عليها ، وكان فى نفس الوقت عضوا فى هيئة المحكمة .. وصمد الضابط الشاب وقدم المثل الأعلى للضابط الجديد الذى انتقلت إليه الأمانة !

وقال أنه صمم على قتل الإمام منذ وقف وهو طالب فى الكلية الحربية ليشهد إعدام أستاذه جمال جميل وكيف ازدرى الإمام واحتقره وهو يتشفى فيه ، وكيف ظل رافعا رأسه رافضا أن تُعصب عينيه .

وقال أنه يدرك تماما مصيره ولكنه نذر نفسه منذ ذلك اليوم لافتداء شعب اليمن وأنه منذ تخرجه كتب وصيته وودع الحياة والأسرة . ووثق أنه يحقق حياته إذا ما استطاع أن يشق طريق الأمل للملايين .. وقال أن الجانى والمجرم الحقيقى هو الإمام .. وأنه لا يشعر بأى ذنب أو أسى بل على العكس تماما قام بما يعتقد أنه واجب وطنى ، وأنه لايشك لحظة أن هناك من سوف يكمل الرسالة ..

وفى اللحظة المقدسة إلتفت إلى السياف قائلا بثبات وهدوء إخبر سيدك أن عصر المشانق قد ولى وإنى آخر ضحاياه .

الليلة الكبرى

ظلت الجزر الصغيرة المتناثرة فى صفوف الضباط الصغار تبحث عن نفسها ، منذ إستشهاد أول أبطالها ، وبدأت تلتقى وتتآلف وتتعارف ، وكان غريبا أن يكون هنا كل ذلك العدد من الشباب من كل الفئات والطبقات والأصول الاجتماعية والمذهبية . ذابت كل الفروق أمام هدف واحد .

كانوا الجيل الأول من نوعه فى حياة اليمن ، تخرجوا في الكليات العسكرية العصرية وهى الكلية الحربية وكلية الطيران ومدرسة الأسلحة الحديثة ، كلية الشرطة ، مدرسة ضباط الصف ..

وقد تولى التدريس وإدارة هذه المعاهدة والكليات قادة عسكريون يمنيون من « الأحرار » الذين أفرج عنهم بعد تنكيل طويل ثم بعثات عسكرية من القاهرة ومن ضباط ثورة يوليو ١٩٥٢ . كذلك تمت الاستعانة ببعثات سوفيتية وتشيكية للتدريب على الأسلحة المتطورة .

ورسب عميقا فى وعيهم أنهم جيل الخلاص وأن هذا قدرهم ولن تتحقق الثورة على أيدى السياسيين أو القضاة أو العلماء التقليديين « الأحرار » مهما كانوا أطهاراً أشرافا ، أو على يد زعماء القبائل المستترين أو المتمردين مهما كانوا مقاتلين فرسانا ، وأنها أيضا لن تتحقق ببطولات فردية مهما كانت فدائية مجيدة ،

ولكنها سوف تتحقق عن طريق واحد هو « الثورة » ، وليس هناك ما يستطيع القضاء على هذا العنف الإمامى والبربرى سوى الثورة . وليس هناك أنصاف حلول ، فالحل الوحيد هو إقتلاع النظام ، كل النظام ومن جذوره ، لا جدوى من إستبدال إمام بآخر ، أو إصلاح فى إطار النظام نفسه ، لامناص من نظام عصرى يقفز باليمن عشرة قرون إلى حياة العصر .

قد تكون المهمة ثقيلة غير مسبوقة ، ولكن لا خيار لهم ولا أحد سواهم يمكن أن يقوم بها .

لابد من طليعة « ثورية » مسلحة ومستقلة وذات جسور مع كل القوى الوطنية تقليدية كانت أم عصرية وقبلية كانت أم حضرية .. كان عليهم مهمة الاقتحام الذى يهدم « السد » الذى يقف حجر عثرة وليتولى بعدهم الشعب إستكمال المهمة ، سوف تتدفق مواهبه وطاقاته المكبوتة ويحقق مايريده لنفسه وبنفسه .

كانوا مجموعة من الضباط الشبان الصغار ، ومعظمهم برتبة الملازم وفيهم قائد يملك مؤهلات القيادة .. فقدموا له البيعة وبدأوا التحضير وسط كل الظروف العصيبة ، كانت كل عيون « نيرون » وجواسيسه تتجه نحو الجيش وترتاب فيه . واستغرق التكوين تسعة أشهر من التعرف والاختبار والبحث وسط كل الضباط الشبان أولا ، ومن هو أكبر رتبة بقليل ، ثم بين الضباط الكبار .

وفى ديسمبر ١٩٦٠ وبعد جهود مضنية فى ظل أشد الظروف وطأة ومشقة ، تم تكوين العمود الفقرى للتنظيم ، من حوالى سبعين ضابطاً شاباً فى العشرينيات من عمرهم ومن خريجى الكليات العسكرية وكلية الشرطة ، وكلهم من نفس الرتبة « الملازم » ، ولكن يتصدرهم واحد منهم بإجماعهم ، كان المؤسس والمفكر والمنظم وكان عقل وروح التنظيم والإبن الروحى « للزعيم » ونموذجه اليمنى ...

كان اسمه الملازم على عبد المغنى . وأقسموا فيما بينهم على المصحف والمسدس على الثورة أو الشهادة ، ولأنهم كانوا صغارا مجهولين لا تعرفهم اليمن فقد تطلعوا إلى أحد القادة العسكريين الوطنيين الكبار ليكون الواجهة التى يمكن أن تقدمهم للشعب ، وكان أول من تطلعوا إليه قائدهم وأستاذهم مدير الكلية الحربية العقيد حمود الجائفى ثم ضابطاً كبيراً أكثر شهرة وشعبية هو العقيد عبد الله السلال قائد الحرس الملكى .

وكان الإثنان من أبطال الثورة الفاشلة سنة ١٩٤٨ وقد ألقى بهما فى السجن فى حجة « الباستيل » اليمنى لمدة سبع سنوات ونصف ، وكان اسم السلال يتصدر قوائم الإعدام ولكنه نجا بمجرد الصدفة ، وكان حمود الجائفى عسكرياً نظامياً صارما ، درس فى العراق فى البعثة العسكرية الثانية وانضم إلى الأحرار بعد عودته وكلف بإحدى المهام الرئيسية خلال الثورة ، وهى إغتيال ولى العهد ، ولم يوفق فى إنجازها ، وإعتبرت الغلطة المميتة التى أدت إلى فشل الثورة .

وقد خرج الجائفى مع الأحرار الذين أفرج عنهم بعد تولى البدر رئاسة الوزارة وتولى منصبه فى الكلية الحربية ، ولكن كان هناك جرح غائر عميق فى نفسه ، لذا رفض الاشتراك فى أى مغامرة أو محاولة ، وإنصب على تكوين ضباط « عسكريين » يصبحون أساس جيش وطنى ، يمكن أن تعتمد عليه الثورة ويضمن نجاحها كاملا ، لأن اليمن لا تحتمل فشلا آخر ونهراً من الدماء ...

وقد اكتسب الجائفى احترام طلبته العميق ، رغم تحفظهم على موقفه وأيقنوا أنهم سوف يقنعونه فى اللحظة المناسبة حينما تدق الساعة .

وكان عبد الله السلال مختلفا ، وقد كان أول أعضاء البعثة العسكرية الأولى إلى العراق ، وصدمته رؤية العالم « المتحضر » فى عدن وبغداد ثم بيروت والقاهرة فى طريق العودة ، وعاد إلى اليمن مشبعاً بالتصميم على ثورة ، لابد وأن تقلب كل

شيء فى يوم وليلة لتعوض اليمن عن كل مافاته .

ووضعه الإمام فى السجن بعد عام من وصوله ثم أفرج عنه ثم سجنه مرة أخرى ، وظل يتقلب بين السجن والمناصب حتى قامت « الثورة » وكان من أبرز رجالها ، وأعتقل وحكم عليه بالاعدام وانتظر دوره فى القلعة فى حجة .

وقد خرج السلال من السجن بلا رهبة ولا مرارة وأشجان وانغمس فى صفوف المعارضة مع الأحرار ، واتصل بكل القوى التقليدية والحديثة . وحينما تولى عمادة كلية الطيران كان منهجه تخريج « ثوار » لا مجرد عسكريين يجيدون الحرب . ولهذا لم يبق طويلا ، ونقل بعيدا إلى « ميناء الحديدة » مديراً للميناء ، واشتبه فى اشتراكه وتدبيره لإغتيال الإمام . ولم يكن ذلك بعيدا عن الحقيقة ، واستخدمت كل وسائل التعذيب لانتزاع إعترافه من المتهمين ، باشتراكه ولكن بلا جدوى .

وقرر « البدر » نقله إلى صنعاء ليكون قائد الحرس الملكى وتحت رقابته الدائمة .

ولم يمنعه منصبه من ممارسة « اللعبة المزدوجة » بكل الحنكة والبراعة . ولم يغير من إيمانه ويقينه « الصوفى » أن الثورة محتومة وأنها مغامرة « مقدسة » مهما تكن محسوبة .

وكان الضابط الكبير الثالث وعضو « الأحرار » هو المقدم عبد الله جزيلان الذى تولى عمادة الكلية الحربية بعد أن نقل الجائفى وعلى الأصح نفى إلى « ميناء الحديدة » لنفس السبب . وكان على النقيض من سلفه تماماً . إعصاراً جياشا متدفقا تغلى الثورة فى عروقه ويتعجلها اليوم قبل الغد ، وقد درس الابتدائية والثانوية فى مصر وأصر على الالتحاق بالكلية الحربية ، لا ليدرس العلوم العسكرية فحسب بل ليلم بثورة يوليو بكل تفاصيلها ودروسها ، وكيف تطبق فى اليمن .

وعاد إلى اليمن بعقيدة ثابتة وهدف واحد هو خلع النظام ومحو كل آثاره وفى أسرع وقت ممكن ، لأن ما فات اليمن لا يمكن إستدراكه بغير ضربات تستأصل جذور التخلف العميقة .

وقد انضم إلى الأحرار بعد عودته ، ولكن استطاع بالتمويه الاستراتيجى الذى كان يجيده أن يكسب ثقة ولى العهد ، وأن يصل إلى المنصب الذى كان يريد أن يساهم فيه بدور تاريخى فى تحقيق الثورة .

وكان هؤلاء هم الضباط الثلاثة الكبار الذين إستأمنهم الضباط الأحرار على السر ، ولكن بغير أية تفاصيل على أن يكونوا أول من يعلم بساعة الصفر .

وكان الضباط الأحرار يدركون تماماً أن الرحلة ليست نزهة قصيرة ، ولكن مسيرة حافلة بكل الأخطار ، وأن عليهم أن يستوعبوا كل دروس الماضى ، وكل أسباب الفشل السابقة وأن يسدوا كل الثغرات لأنه لن يكون هناك بديل هذه المرة عن النجاح ، فالبديل سوف يكون إحراق روما عن آخرها ، ولن يتورع (الإمام) عن ذلك ، وقد كان يئن من الألم من الرصاصتين الباقيتين فى جسده ويتحرق للثأر .

وكان المرجع الأول والأساسى قائما وقد درسه كل منهم واستوعبه وتشبع به ، ولم يبق سوى أن يصهره فى الواقع اليمنى ، لأن الثورات لا تستنسخ ولا تستورد مهما كانت مماثلة أو شقيقة .

وتعددت اللقاءات وبدأ وضع الخطط الطويلة والقريبة المدى ، وبدأ توزيع المسئوليات حتى تحين اللحظة لبداية العد التنازلى نحو ساعة الصفر المقدسة ...

وفى يوليو ١٩٦٢ شهدت اليمن الحادث الأول من نوعه فى كل تاريخها الإمامى ذى الأحد عشر قرناً .. أضرب طلبة المدارس فى العاصمتين صنعاء و تعز إضرابا شاملاً ــ ثم انضم إليهم العمال ــ الطبقة التى بدأت تتكون وتنتظم فى اليمن

الشمالية ثم انضمت اليهم الجموع حتى كادت أن تتحول إلى انتفاضة ، ولأول مرة فى شوارع المدينتين الرئيسيتين سارت مظاهرات حاشدة تهتف بحياة الجمهورية وسقوط الإمام . كان حدث الأحداث ، كان تمرداً انبثق تلقائيا بدون تنظيم من أحد ، ونتيجة التفاعل والتأثير بثورة عبد الناصر ... كان الوعى بما سيتبعه من أحداث .

ولم يملك قائد الحرس الملكى الذى كلف بتفريق المتظاهرين وإخماد الفتنة فى مهدها — سوى أن ينصحهم بالتفرق تلافيا لصدام غير متكافىء ولكنه أحس فى قرارة نفسه أن هذه هى الشرارة الأولى .

وأصدر زعماء الأحرار بيانا يخلدون فيه هذا الحدث قالوا فيه : « لقد انقض الشباب الأحرار من طلاب المدارس فى صنعاء وتعز ومعهم العمال الأحرار انقضوا ثواراً زاحفين يتحدون الموت والرصاص والسيوف والخناجر لكى يعلنوا إرادة الشعب البطل وتصميمه على التحرير والخلاص والوحدة ، وظلت طلائع العمال المناضلة تهتف بحياة الجمهورية اليمنية على أبواب القصور الملكية وهى تضرب بالسياط حتى تسقط على الأرض ، وليست تلك الوثبة الشابة إلا ومضة خاطفة وإشارة عابرة توحى إلى وقود ثورى كامن فى أعماق شعبنا الجبار » .

كان تعميداً ثوريا للجيل اليمنى الجديد ، وإيذاناً بقرب « الميلاد » ، وأنه لم يعد بعيدا بل إنه أقرب بأكثر مما يتصور زملاؤهم العسكريون . وأدرك هؤلاء مغزى الرسالة وأنهم يستطيعون أن يعتمدوا على قوة شعبية ، وأنهم يقفون على أرض ملتهبة .

وفوجىء الذين انهمكوا فى الإعداد والتحضير ليوم الفصل ، بأن الإمام سبقهم ومات على سريره بعد عام ونصف من المقاومة العنيدة والعذاب الأليم من أثر الرصاص ..

توفى الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين الناصر لدين الله يوم ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ وعلى الفور أعلن الأمير محمد البدر إماماً واتخذ لنفسه لقب المنصور ، وبدا أنه متعجل فى لهفة يسابق الزمن أو يستشعر خطراً مجهولا .

وكان الأمير قد استطاع خلال توليه ولاية العهد وإشرافه على سياسة الإنتفاح والإصلاح ، أن يخدع بعض الأحرار لبعض الوقت ، ومال هؤلاء إلى الاتفاق معه على شروط البيعة ، وإلى أن يجعلوا منه الإمام « الشورى » الذى كانوا يعلقون الآمال عليه ولكن الأغلبية رفضت أن تلدغ من الأئمة أيا كانت وكانوا يعرفون حقيقته ورياءه ونفاقه .

ولم يلبث الإمام الجديد أن حسم الخلاف وقطع الشك باليقين فى أول إعلان له بالإمامة وأسفر عن وجهه ، إذ أعلن أن لا تغيير ، وأنه سوف يستبقى كل الذين عملوا وأخلصوا لأبيه ، وسوف يواصل العمل معهم ولن يحيد عن نصح آبائه وأجداده ..

وكان ذلك إستفزازاً وتحديا مباشرا ، أكده فى أول خطبة فى صلاة الجمعة بعد توليه السلطة ..

ثم كانت القشة التى قصمت الظهر وهى إستدعاؤه لعمه الحسن من نيويورك ليكون رئيس الوزراء ، ولكى يعاونه فى القضاء على الفتنة التى يبدو أنها تطل برؤوسها فى كل مكان .

وكان الحسن هو « بطل كارثة » صنعاء الذى أشرف على إستباحة القبائل للمدينة سبعة أيام محفورة فى ذاكرة كل يمنى ، وكان لدهشة الجميع خصما لدوداً للبدر وكان منافسه حول ولاية العهد . وقد استبعده الإمام إلى هيئة الأمم المتحدة لتمثيل اليمن هناك .

وتبنت المملكة السعودية الأمير الحسن ورشحته ليكون إماماً ومهدت له بين

القبائل الموالية ، ثم وثقت صلاته مع شركات البترول الأمريكية ومع الدولة الأمريكية ليكون رجل المستقبل فى اليمن .

وكان التصالح بينه وبين ابن أخيه يؤكد أن سياسة الانفتاح والاصلاح كانت مجرد نفاق وأن استعانته بالأحرار والثوار كانت موجهة ضد منافسه فى العرش.

وضاعف من فزع الجميع وتقززهم ما أعلنه الإمام الجديد من أنه سوف يجدد فى العقوبات ، وسوف يغير من طريقة الإعدام فلن يكتفى بقطع الرقبة ، ولكن بقطع الجذع ، أى أن يشطر المذنب إلى نصفين .

ولم يترك الإمام الجديد للثوار أى خيار ، لايمكن أن يسمح « لهذا الطرح الخبيث للشجرة الخبيثة . أن يستمر فى الإمامة ولا ينبغى أن يحتمل الشعب رذائل وسوءات إمام مختل مجنون آخر » .

لابد من القضاء عليه قبل أن يبدأ ويسبق وكان يعرف الكثير عن الأحرار والثوار ... وفرضت ساعة الصفر نفسها على الثورة اليمنية ولم تكن قد استكملت إستعدادها وخططها وبرامجها .. ولكن ليس للثورات عادة منطق سوى ماتمليه

وخلال الاستعداد ، كان طبيعيا أن يختبر الثوار مدى ما يمكن أن تقدمه الثورة « الأم » ، وهل تمكنها الظروف من المساعدة وكانت تمر بامتحان صعب دقيق بعد الانفصال ، وكانت الثورة العربية عامة تمر بفترة جزر نتيجة ذلك الحدث . ولكن كان الرد بالايجاب ، وأنها سوف تقدم كل ما تستطيع ولم يكن ممكنا أن يكون الرد مختلفا ..

وقدَّر الضباط المتشائمون نسبة النجاح بأنها ١ ٪ وقدر أشد المتفائلين النسبة بأنها ٦ ٪ ولكن أجمع الكل على أنه لا مناص من القيام بالثورة مهما تكن النتيجة ، فسيظل عاراً لايمحى أن يبقى الإمام بعد ذلك يوماً واحداً على العرش .

وتحددت ساعة الصفر مساء الخميس ٢٥ سبتمبر ١٩٦٢ ، وحمل كل منهم روحه فى يديه وكتب وصيته ، وأوصى كل منهم الآخر بأسرته وأولاده ، وتسلم كل منهم مهمته ، وتجمعوا فى المقر الذى اتخذوه للقيادة ، وكان الكلية الحربية ، وتولى القيادة قائد الكلية عبد الله جزيلان ، وزعيم التنظيم على عبد المغنى .

وكان مقرراً أن تبدأ الخطة بما أصبح قاعدة ثابتة لبدء الثورة فى اليمن ، وهو الخلاص من الإمام فطالما بقى على قيد الحياة يظل كل شيء مهدداً .

وكلف بالقضاء عليه إثنان من ضباط الحرس الملكى كانا من أعضاء التنظيم ومن المقربين إليه . وكان مقدراً أنه بإعلان إغتيال الإمام سوف تتداعى أعمدة النظام ، وتضطرب كل صفوف الملكيين ، وحينئذ يوجه الضباط الضربة السريعة القاصمة .

ولسوء الحظ تعثر التنفيذ ولم يتحقق ، واعتقل أحد الضباط وهرب الثانى ليبلغ التنظيم ، وأدرك البدر أن كل ماكان يخافه ويخشاه قد وقع ، وأن كل الشائعات التى كانت تموج بها العاصمة من أن شيئا هائلا على وشك أن يحدث ، قد أصبح حقيقة . أعلن الإمام حالة الطوارىء ، وأدرك الضباط أن لامفر من حصاره ومواجهته والقضاء عليه فى قصره قبل أن يخرج ويحاول إستنفار الجماهير .

وانطلقت كل الأسلحة التى أعدوها ولم تكن كثيرة ، وإنفجر هدير المدافع وفرقعة الدبابات وسيل الرصاص ، وتفرقت المجموعات الصغيرة فى أنحاء المدينة ، ولم تكن كل منها أكثر من ثلاثة أو أربعة من الضباط ، وعدد يحصى على الأصابع من ضباط الصف والجنود ، واقتحموا بوابات صنعاء المغلقة وحاصروا قصر الإمام ، وبدأوا يدكونه على من فيه ، وإتجهوا إلى المواقع الاستراتيجية الرئيسية ، وأحاطوا بالإذاعة ، وتوجه البعض لاعتقال رؤوس النظام ، وتم كل شيء فى سرعة

خاطفة وبأقل مقاومة . وبعد ساعات قليلة بدا أن كل شيء قد تم ، وأن الحلم قد أصبح واقعا وبأسهل مما تصوروا .

ولكن مالبثوا أن واجهوا ــ فجأة ــ سيلا مكثفا من النيران مصدرها قصر الإمام وسلاح المدفعية وقصور بعض الأمراء التى بدا أنها كانت أشبه بحصون وقلاع مدججة بالسلاح . وتساقط الشهداء وأعتقل أحد أعمدة التنظيم فى ثكنات المدفعية واستماتت الضباط الصغار فى المقاومة وقرروا افتداء الثورة ولو بأرواحهم جميعا ...

وأرسلوا فى إستدعاء القائد الكبير الذى تعلموا على يديه ولا تزال ثقتهم فيه كبيرة « حمود الجائفى » ، ولكنه لامَهُمْ فى تلك اللحظة على المغامرة التى طالما حذرهم منها .

وإتجهوا الى السلال فاندفع يلبى النداء ، كانت اللحظة التى عاش لها وانتظرها طوال حياته . ارتدى سترته العسكرية كقائد للحرس الملكى ، وخرج ليموت أو ينتصر مع طلبته الصغار . وأدرك حرج الموقف ودقته ، وبدأ يصدر تعليمات القائد ... أصدر أمراً ملكيا مكتوبا إلى قائد قصر السلاح ليفتح أبوابه للضباط الذين يسلمونه الرسالة وتدفقت الأسلحة والذخائر وأصدر أمراً مشابها الى قادة المدفعية أن يكفوا عن الضرب ، وأن يستقبلوا رسله من الضباط ، وأصدر أمرا إلى الفرقة الخاصة من الحرس الملكى والتى كانت تسمى « قوح البدر » أن تلقى السلاح .

واختلط الأمر على القادة والضباط الملكيين ولم يخالجهم شك فى أن السلال يتصرف بإسم الإمام ، ولهذا نفذوا كل ما أمر به . وكانت هدنة كافية للضباط الأحرار لكى يعيدوا تنظيم الصفوف وتعديل الخطط ، وأن يقوموا بالهجوم المضاد وأن يسحقوا كل المقاومة الملكية ، ويأسروا قادتها ، وأن يستولوا على قصر الإمام ،

وأن يحتلوا الإذاعة ، واستحق السلال أن ينصب قائدا عاما للثورة وأن يدخل التاريخ !

وحينما أشرقت الشمس صباح يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ ، استيقظت اليمن على أصوات لم تألفها . كان مدير الإذاعة فى الدار وحوله خلايا الإذاعيين والكتاب ومثقفى الثورة ممن إستطاعوا أن يتسللوا إلى الإذاعة ويحتلوا مناصبها إستعدادا لذلك اليوم ، وكانوا ينتظرون قدوم « الثوار » تحت وابل من الرصاص والقذائف وأيديهم على قلوبهم . كان مدير الاذاعة من الضباط الأحرار القدامى « المرونى » ووصل أول الضباط وأعلن أن كل شيء قد تم وأعطيت إشارة البدء وبعد أن تلى القرآن الكريم انطلق نشيد الله أكبر « نشيد معركة السويس » ثم صوت المذيع يقول هنا صنعاء « صوت الجمهورية العربية اليمنية » وتلا أحد الضباط الأحرار البيان الأول للثورة . وتبدد فى ليلة واحدة الظلام الذى ساد ألف عام ، وهرع الشعب و نزل ليبارك الثورة ويحميها ، ولم ينقض النهار حتى كانت كل الحاميات فى المدن الكبرى قد أيدت ونفذت ماكان لديها من خطط وفى اليوم التالى أنزلت أعلام الإمامة وإرتفعت أعلام الجمهورية .

تحققت المعجزة .. ولكن الإمام استطاع أن يهرب فى ثياب إمرأة وتسلل من القصر ، تصور أنه سوف يلجأ إلى قبائل الشمال ويعود بها كما فعل أبوه ، ولكن رفضت جميعها قبوله . لم يجد له مكانا فى اليمن فواصل الهرب حتى السعودية .

الثورة المضادة

كانت حرب ١٩٥٦ قد انتهت إلى نتيجة لم تردها الولايات المتحدة الأمريكية وهى كانت تتمنى لو أن إيدن قضى على عبد الناصر وأن عبد الناصر قضى على إيدن ، وأن ترك الاثنان فراغا فى المنطقة لابد ولا مناص من أن تملأه . وكانت الولايات المتحدة تمقت إنتونى إيدن بقدر ماكانت تمقت عبد الناصر لأسباب مختلفة بالطبع ، وبالنسبة لـ إيدن كان تشبثه بالامبراطورية البريطانية « الثالثة » وأن الشرق الأوسط وأفريقيا لابد وأن تُترك خالصة لها وأن لاتتدخل الولايات المتحدة إلا عن طريقها ، وبالنسبة لعبد الناصر كان إيمانه بالأمة العربية وأن يترك الجميع المنطقةخالصة ومتحررة لأصحاب الحق فيها أى العر ب .

وكانت الولايات المتحدة تعرف كل الحقائق منذ البداية ، كان آلان دالاس مدير المخابرات المركزية الأمريكية شقيق جون فوستر دالاس وزير الخارجية والرجل الثانى إن لم يكن الأول فى الإدارة حينذاك ، وقد زودته مصادره فى كل شبر من المنطقة والعالم بالمعلومات والمشاريع ، وقام وزير فرنسى فى وزارة جى موليه الفرنسية بتقديم كل الخطط التى اتفقت عليها الدول الثلاث فى الاجتماع الشهير بمدينة سيفر إلى السفير الأمريكى فى باريس الذى أرسلها على الفور إلى واشنجطن .. وكانت الولايات المتحدة تستطيع لو أرادت أن توقف الحرب منذ البداية وقبل أن تبدأ ولكنها قدرت أن النتيجة سوف تكون فى النهاية فى مصلحتها !!

وكانت أسوأ من كل ماتوقعت ، وخرج عبد الناصر من الحرب زعيما تاريخيا لكل العرب وبطلا وطنيا لكل شعوب العالم الثالث ، واندثر إيدن وجى موليه وبن جوريون ، وإنتهت الامبراطورية البريطانية ، وتقوضت أعمدة الامبراطورية الفرنسية ، وانتهى فى تلك المعركة عصر كامل عمره خمسة قرون هو عصر السيادة الأوروبية .

ولم يكن هناك لحظة تاريخية أفضل لكى يرتفع علم القرن الأمريكى على المنطقة وقد أصبحت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية منطقة أمن قومى ومصالح اقتصادية واستراتيجية عليا للحلف الغربى .

وقبل أن تزول آثار العدوان خرجت الولايات المتحدة الأمريكية على العالم بنظرية سُميت باسم رئيس الجمهورية ايزنهاور ، وكان رئيس الجمهورية السابق ترومان قد خرج بنظرية سميت باسمه ، وبدأت بها الحرب الباردة ولابد أن يكون للجهموريين ورئيسهم نظرية مماثلة .

وقالت النظرية أن هزيمة بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأوسط قد تركت فراغا « خطيرا » فى المنطقة ، وأن الشيوعية الدولية متربصة ومتحفزة لأن تملأه ولابد أن تسارع الولايات المتحدة لأن تسد الفراغ .

ولم تكن نظرية « ملء الفراغ » جديدة ، بل كانت المحور الثالث الذى قامت عليه السياسة الأمريكية ، أو كما سُميت الاستراتيجية الكونية ، وكانت تقوم على استيعاب أوروبا فى مشروع مارشال وحلف الأطلنطى وحصار روسيا وتصفية الشيوعية ثم وراثة الاحتواء ثم دارة الامبراطوريات الأوروبية السابقة تحت اسم الحلول أو ملء الفراغ .

وقد رفضت كل الشعوب المتحررة تلك السياسة واعتبرتها استفزازا وأكبر إهانة يمكن أن تُوجه لشعوب عريقة ، كافحت ببطولة لتسترد اعتبارها .

وكان طبيعيا ومنطقيا أن يرفض عبد الناصر تلك النظرية وأن يسفهها ويندد بها جملة وتفصيلا . لا يمكن أن يترك رحيل الاستعمار فراغا ، ولا يمكن أن يذهب مستعمر لكى يحل محله مستعمر آخر .

وكان الشرق الأوسط فى تعريف ايزنهاور « عنق العالم » وإذا لم تمسك به الولايات المتحدة وتستولى عليه فى تلك اللحظة التى لن تسنح بعد الآن فإن كل الاستراتيجيات « الكونية » ستظل مهتزة الأركان !!

وتقرر فى واشنطن ـــ ولا راد لقرارها ـــ أن عبد الناصر يجب أن يذهب ، وأن هذه المنطقة الحاسمة لابد أن تنتقل إلى أيد « أمينة » .

وعجمت الولايات المتحدة عيدانها فى المنطقة فوجدت أصلحها وأصلبها جلالة ملك السعودية ولأكثر من عشرة أسباب كان أولها أنه أخلص وأصدق حكام المنطقة . وقد تخلص من آخر مايربط المملكة بماضيها « البريطانى » والذى يمتد طويلا فى التاريخ منذ شركة الهند الشرقية ونقل الولاء كاملا وشاملا إلى السيد الجديد . وأنه أغنى حكام المنطقة ولديه وتحت أقدامه ثروة لا تعد ولا تنتهى ، وهو طموح مهما كانت أطماعه تفوق مواهبه ، وهو على استعداد لأن ينفق وبسخاء على مشاريعه ولن يكلف الخزانة الأمريكية شيئا .

وهو حاكم « مطلق » ليس لديه أحزاب أو جماعات ضغط أو معارضة ، وما يقرره وينطق به هو القانون ، ولا إرادة تعلو على إرادته .

وهو ليس مجرد حاكم ولكنه زعيم روحى لكل العالم الاسلامى ، وينتمى إلى أعرق الأسر الدينية فى شبه الجزيرة وهو حامى الأماكن الاسلامية المقدسة ، ويحج إلى بلده كل عام ملايين المسلمين من مشارق الأرض ويؤمهم جميعا للصلاة فى المسجد « النبوى » والكعبة ، وأخيرا وليس آخرا هو أشد الأعداء الألداء للشيوعية « الملحدة » !.

كانت كل هذه الأسباب كافية فى نظر الولايات المتدحة لتنصيب جلالة الملك سعود بن عبد العزيز بديلا لجمال عبد الناصر الذى يطمع فى أن يقيم امبراطورية عربية إسلامية بزعامته وبمساعدة السوفييت .

ودعى جلالة الملك سعود إلى زيارة للولايات المتحدة الأمريكية لكى يتم تعميده و « تدشينه » هناك ويمكن تجميله وتقديمه للرأى العام الأمريكى . وسخرت كل اجهزة الدعاية والاعلام لكى تعدد مناقب الملك . ولكى تثبت « إنسانيته » وكان خبراء « العلاقات العامة » قد أشاروا عليه أن يصحب آخر أنجاله وهو طفل صغير مصاب بشلل الأطفال لكى يستدر عطف الأمهات الأمريكيات !!

وكانت الخطوة التالية والرئيسية فى الخطة التى اتفق عليها هى أن يفصم — مهما كان الثمن أو الطريقة — الحلف المصرى السورى الذى قام وتوثق خلال الحرب ، وأن يعزل عبد الناصر والنظام السورى مقدمة لتصفية الإثنين .

وكان الملك سعود قد أثبت جدارته وكفاءته فى الخطوة الأولى ، واستطاع بمعاونة المخابرات المركزية الأمريكية واسرائيل أن يطيح بالحكومة الوطنية الأولى فى الأردن والتى تضامنت مع عبد الناصر خلال الحرب ، بل وعرضت الاشتراك فيها ، وكان الانقلاب بداية « العصر السعودى » وما سمى « حلف العروش العربية » إذا أنهى جلالته خصومة تاريخية دامت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى بين أعرق أسرتين « اسلاميتين » مواليتين وربيبتين للإمبراطورة البريطانية وهما الهاشميون فى الأردن والعراق والسعوديون فى نجد والحجاز وشبه الجزيرة ، وتحالفوا جميعا إزاء الخطر المشترك وكان باكورة نجاحهم إنقلاب الأردن .

وأصبح عليهم بعد أن بايعوا جلالة ملك السعودية .. الإطاحة بالنظام السورى . وقد استعصت سوريا على جلالته رغم أنه فتح خزائنه على مصاريعها ،

ونثر الرشاوى السخية فى كل مكان ، وقد أراد أن لايستثنى أحدا ، ولكن ذهبت إحدى الدفعات إلى العنوان الخطأ ، الذى تسلم الرشوة وفضح جلالة الملك ، وأثار ضجة كبرى فى العالم العربى .. وأودع المليون جنيه الذى عرض على مدير المخابرات السورية عبد الحميد السراج فى الخزينة العامة السورية !!

وقهر الحلف السورى المصرى كل المؤامرات والمخططات المحمومة التى تزعمها جلالته وانضم إليه أطراف أخرى تركيا وإيران وباكستان ، وانتهى الحلف إلى قيام الوحدة المصرية السورية ، وأول جمهورية عربية متحدة « اشتراكية » فى تاريخ العرب . وتفجرت كل ينابيع البشر والأمل وتدفقت الملايين بعد الملايين فى كل أرجاء الوطن العربى فى نشوة عارمة تحيى الحدث الذى فاق كل الأحداث ، وكانت « غصة » مريرة فى حلق جلالته وازدادت شدة بعد أن أعلنت « الاشتراكية » ولم يعد الخطر قوميا فحسب ، ولكن إجتماعيا أيضا ، وإذا ماتوطدت أركان هذه الدولة « الثورية » فى قلب المنطقة فإن كل المصالح والاستراتيجيات العليا سوف تتداعى .

واستنفرت كل القوى على عجل ، وعقدت الاجتماعات واستدعى كل الخبراء فى بيروت والرياض وفيينا .. وإنضمت إلى الحلف فئات وطبقات « سورية » كانت تتوقع أن تكون الوحدة أداة وتأمينا لمصالحها لا إنحيازا للجماهير .

ونجحت المؤامرة فى نهاية الأمر وانتشى صاحب الجلالة وفاض زهواً وخيلاء ، واسترد كل ثقة الأرباب فى واشنطن ، وصلصل جلالته بالسيف ورقص رقصة الحرب وأطلق الصيحة .. إلى القاهرة .

صرح جلالته أن الوقت قد حان لنقل المعركة إلى القاهرة ... لقد عزل النظام وزلزلت الضربة معنوياته ولن يحتاج إلى جهد للإطاحة به .

وتمهيدا « للغزو » وتهيئة للمناخ الملائم ، عقدت الجامعة العربية جلسة

خاصة بناء على طلب « سوريا » لنظر شكواها ضد الجمهورية العربية المتحدة ، وتمت تعبئة كل القوى المعادية ، كل ممثلى الثورة المضادة بقيادة أحد قادة حزب البعث . وأقيمت مظاهرة « تنديد » كبرى أدت إلى انسحاب مصر من الجامعة العربية .

وفى هذه اللحظات القاتمة جاءت الأنباء بالخبر السعيد ، قامت الثورة فى اليمن ، وأطاحت بالإمام وعرش الأئمة وقام بها كوكبة شبان صغار « ضباط أحرار يمنيون » .

وصلت « المولودة » الفذة فى ساعة الطالع الحسن ، وبددت الغمة وملأت البيت بشرا وإشراقا .

ولكن على الجانب الآخر . كانت عضة الثعبان التى ملأت صاحب الجلالة رعبا وطوى الخيمة وخطط الزحف وهرول فزعا ليدفع الخطر المباشر .

وقف « الضباط الأحرار » على حدوده وفى قلب « امبراطوريته » ولا عاصم من الطوفان !!

لم يغب عن ضباط الثورة أبدا أنها ولدت فى خطر ، وأنها سوف تظل مهددة محاصرة حتى تردع هذا الخطر ، وحتى تثبت له أنها جاءت هذه المرة لتبقى .

ولم يكن هناك شك حول مصدره ومن أين يهب وينقض وأنه ينطلق من الشمال .

وقد رفض أى تعايش ، ولم يقنع بغير القضاء عليها وفى حمام من الدم ، ولن يقبل بلا شك قيام جمهورية ثورية يقودها ضباط أحرار يعتنقون مبادىء الثورة العربية ويتخذون زعيمها بطلا ومثالا .

وقد كان النجاح باهرا وخاطفا ، وتدفقت جماهير صنعاء منذ أذيع النبأ إلى

الشوارع ، وأحاطت بالقيادة تطلب المساهمة فى حماية الثورة .

وانساب طوال الأيام التالية طوفان بعد طوفان من البشر من كل أرجاء اليمن القريبة والنائية ومن كل المدن والقرى ، وتوافدت جموع القبائل وزعمائها ومشايخها وجاءوا هذه المرة ليهنئوا ويباركوا ، وقد نفضوا أيديهم من « الإمام » وتحرروا من خرافاته ولم يخالجهم شك أن الثورة باقية .

ولم يقلل ذلك فى شىء من الاحساس العميق بالخطر ، وأنه لا محالة قادم ، وأن عليهم التفرق والاندفاع لملاقاته ، وقد فشل الإمام المخلوع فى أن يجد موطىء قدم له على أرض اليمن ، ولم يستطع أن يستثير قبيلة أو يحتمى لديها ، ويجب أن لا يسمح له بأى ثغرة يحاول العودة منها أو يبعث فيها بأعوانه .

وتحققت أسوأ ظنونهم بأسرع مما توقعوا . وبعد أيام من النصر ، وصل الأمير الحسن « سفاح » صنعاء ، والذى كان مقدرا أن يكون رئيس الوزراء إلى جدة قادما من نيويورك ، وعلى الفور نصَّب نفسه « إماما » وأعلن « الجهاد » من أجل الوطن والدين ، وللقضاء على المتمردين المغتصبين .

وبعد أيام أخرى أعلنت الإذاعات السعودية والغربية أن « الإمام الشرعى » محمد البدر مازال حيا وقد حفظه الله ونجّاه » وأن الأمير الحسن قد تنازل عن دعواه ، وأن الأسرة الحميدية قد بايعته على أن يواصل « الرسالة » ويتم « الجهاد » .

وما لبث أن أذيع على العالم أن « الإمام الشرعى » سوف يعقد مؤتمرا صحفيا عالميا ، فى مكان ما فى شمال اليمن ، وسوف يشرح فيه ما حدث ، ويكشف عن خططه لسحق التمرد وإعادة الشرعية .

وتولت السلطة الأردنية ، التى كانت تربطها صلات وثيقة مع السلطات

السعودية منذ انقلاب الأردن المشترك ، وتصالح الأسرتين الملكيتين ، تنظيم المؤتمر الذى أحيط بالاثارة والغموض ، ودعى إليه من يستطيع « المخاطرة » من الصحفيين الأمريكيين والأردنيين والعرب .

وكان المؤتمر الأول من نوعه وعقد فى كهف كبير داخل حدود السعودية وأعلن الإمام أن ماحدث كان تمردا محدودا وأن القائمين به لا يسيطرون سوى على ثلث صنعاء ، وأن ثلاثة أرباع اليمن ومدنها الثلاث الكبرى صنعاء وتعز والحديدة مازالت موالية ، وأن الزحف سوف يبدأ فورا إلى صنعاء ، ولن يستغرق سوى ثلاثة أسابيع ، وسوف يلتقى بهم فى المؤتمر الثانى هناك .

ورسم الصحفيون الذين تمتعوا بضيافة المملكة صورة خيالية مثيرة للأمير الشرق « الفارس » والذى صمم على تحرير بلاده واسترداد مكانته الروحية ، وعلى مقاومة مؤامرة توسعيَة تساندها الشيوعية الدولية .. أصبح « الإمام » منْ نجوم « العالم الحر » .

واستنفر ذلك العالم الغربى بكل فصائله وفروعه ، وتعبأت كل قواه لمساندة « المجاهد » الشاب ضد قوى البغى والالحاد ، وتقرر أن تكون المعركة فاصلة .

كان جلالة الملك سعود قد أعلن بعد الانفصال السورى ، أن النظام فى مصر قد أصبح معزولا ، ولم يبق سوى تصفيته .

ولكن حينما أصبح الهدف على مرأى بصر « جلالته » وقع المحظور الذى لم يخطر قط بباله وكان أشد ما يخافه ويخشاه . ونجحت ثورة فى اليمن ، ووقف ضباط أحرار مباشرة على حدوده .

وهرع مفزوعا يبحث عن عاصم من ألسنة النار ، كان لابد وأن يكون الثأر عاتيا والحقد عارما !!

★★★

وأعلنت التعبئة العامة فى المملكة وتوزعت القوات على الحدود اليمنية ، وتكثفت فى الأراضى اليمنية المحتلة فى نجران وجيزان ، وبدأ الطيران يقوم بطلعات على الحدود لاستكشاف مواقع قوات الثورة ، وبدأت الاذاعات والنداءات « ملتهبة محمومة » تدعو اليمنيين فى الداخل والخارج ، لانقاذ اليمن قبل أن يلتهمها « الكفار » وفتحت الخزائن على مصاريعها ، وانسابت أكياس الذهب وكانت « الأسعار » مضاعفة ومجزية ، وانهمرت الأسلحة البراقة الحديثة وتعالت صيحات الجهاد والاستشهاد ، ورغم ماكانت تفعله الجنيهات الذهبية والبندقية عادة بالقبليين وتسخرهم كالقطعان ، إلا أن الاستجابة كانت محدودة ، ومن نفاية القبائل الصغيرة والمدفونة وراء التاريخ ، وقد توزعت هذه الفلول على « سيوف الاسلام » الذين لم يعرف عن أغلبيتهم الساحقة أى شجاعة أو كفاءة لكى يقودونهم إلى صنعاء .

ولم تكن القوات المسلحة اليمنية متكافئة ولم تكن قد طهرت تماما من العناصر الملكية ، ولم تكن القبائل مهما أبدت من ولاء مأمونة الجانب تماما ، ولكن اعتمد الضباط الأحرار على مافجرته الثورة من وطنية وحماس ، وعلى اندفاع الشباب من كل أرجاء اليمن شمالا وجنوبا للتطوع والدفاع عن الثورة واحتوائها ، وأن يفنى الجميع ولا تتكرر المأساة ..

واستنجدت الثورة بالقاهرة ، وبالوعد الذى قطعه عبد الناصر بالمساندة . وفى ظرف أيام كانت قوات الصاعقة المصرية تهبط فى صنعاء ، وتتوزع على مواقع وبواطن الخطر ، وكانت السفن المحملة بالقوات والذخائر تشق البحر الأحمر فى طريقها إلى ميناء الحديدة .

ولم يكن ذلك مجرد وفاء بالوعد ، أو رداً لجميل الثورة فى اللحظات العصيبة ، ولكن التزاما عقائدياً بالمبادىء التى قامت عليها الثورة « الأم » وكانت استمرارا

للدور الذى أدته القوات المسلحة المصرية نحو الجزائر وسوريا والعراق ، وكل شعب عربى ، احتاج للمساندة ، وكان ذلك إيمانا بأن الحرية العربية لا تتجزأ وأن الدفاع عن حقوق شعب عربى هو دفاع عن حقوق الأمة .

وقد بُنيت القوات المسلحة المصرية لتكون القوة الضاربة للثورة العربية وكان الذهاب إلى اليمن فرضا وجزءاً لايتجزأ من رسالتها .

كانت الوحدة العربية ، تراثا ورثه عبد الناصر وألقى التاريخ على كاهله مهمة تحقيقها ، وكان التكامل الحضارى والسياسى والاستراتيجى أمانة ورؤية انتقلت إليه من صلاح الدين الأيوبى .. إلى على بك الكبير .. إلى إبراهيم باشا .. إلى جمال عبد الناصر . وكانت اليمن ركناً أساسياً لا تكتمل بدونه .

وقد انبثقت الثورة الفتية فى أخطر مكان وزمان ، ولابد من حمايتها .. مهما يكن الثمن !!

« فى هذه المنطقة بدأت أعرق الحضارات ، ومنها خرجت أعظم الديانات ، وعلى أرضها دارت أهم المعارك والتى صنعت التاريخ ، وفيها تلتقى وتتفاعل وتتصارع كل الشعوب والأجناس وكل المذاهب والعقائد ، وكل المشاريع الكبرى والمطامع .. وقد ورث العرب كل ذلك ، وأبدعوا أجمل فصوله .. ولابد وأن يستأنفوا دورهم ويخرج من المنطقة شيء عبقرى جديد » ، وكان المتحدث هو لويس فيليب ملك فرنسا إلى كلوت بك وزير الصحة الفرنسى فى مصر ، وكان الحديث عن إبراهيم باشا والدولة العربية التى كان يزمع تحقيقها .

وقد رفضت السعودية أن تعترف أن ماحدث كان ثورة ، وأنها من حق شعب اليمن ، وأنها نتيجة طبيعية لما عاناه طوال تاريخ وثمرة محتومة لكفاحه .

وأصرت على أن تصف ما حدث بأنه مغامرة متهورة دبرتها المخابرات المصرية مع عملائها فى اليمن ، وتمادت فى الغى وأعلنت أيضا أن الاسلام فى خطر ، وأن

المصريين والسوفييت أعداء الله والاسلام ، يريدون الزحف إلى الأراضى المقدسة ، ومعاقل الاسلام الحنيف وأن يتقاتل المسلمون فيما بينهم .

وكان السعوديون وهابيون وطالما حاربوا الشيعة الزيدية فى اليمن ، ولكن الدين كان السلاح والمطية التى تسخر لكل الأغراض الدنيوية .

لم تكن بريطانيا فى حاجة الى اقناع لكى تلبى نداء النجدة وكانت تسيطر على نصف اليمن الجنوبى وكان آخر قلاع الامبراطورية ، وقد استبسلت فى تحصينه ولم يكن أحد فى اليمن الشمالى حتى « الأئمة » يعترف لبريطانيا بأى حق فى احتلال الجنوب ، وكانت « وحدة اليمن » المطلب الذى يُجمع عليه ولا يختلف حوله أى من اليمنين ، وإذا ماقامت الجمهورية « الثورية » فى الشمال ، وإذا ماااستقرت وتوطدت أركانها ، فلابد أن يثور المطلب وسوف تمتد الشرارة وتشعل الجنوب .

وكان لبريطانيا ثأر لايبرد ولا يهدأ ضد عبد الناصر ، ولم تغفر له قط هزيمة السويس ، ولا يمكن أن تسمح له بأن يلحق بها هزيمة أخرى أشد .

ولم تتخلف الولايات المتحدة بالطبع وكانت الأجهزة الأمريكية أشد نقمة وحفيظة ، ولم يحدث أن تحداها أحد من زعماء العالم الثالث وأفسد كل خططها ومشاريعها مثل عبد الناصر ، وبعد خمس سنوات من قرارها بأن يذهب مازال هناك وعلى قمة العالم يثيره ويقيمه ويقعده ، ولم يكن هناك على خريطة العالم الثالث من يكرهونه حتى التحريم ويقفون عاجزين إزاءه سوى عبد الناصر ، وكان « تدخله » فى اليمن ذروة الأوزار والكبائر .

نفذ عبد الناصر إلى قدس الأقداس وغزا إمبراطورية البترول ، وكان البترول العربى أثمن وأحدث كنوز « سيدة العالم » واعتمدت عليه فى مشروع مارشال وإعادة تعمير أوروبا ، واعتمدت عليه فى إعادة بناء اليابان ، وتحقيق المعجزة

الآسيوية ، وهو يسد ٢٥ ٪ من حاجات السوق الأمريكية والمحلية ، وتجنى شركات البترول أكبر أرباح تحققها أى استثمارات خارجية أمريكية .

وانكب الخبراء والإخصائيون على ابتكار استراتيجية مضادة لانجاة منها وتقرر أن يتولى البنتاجون قيادة حرب اليمن ، ووقع الاختيار على أهم خبراء المؤامرات والانقلابات والاغتيالات وحروب العصابات ليتولى المهمة ، وهو « المستر كومر » وسميت حرب اليمن فى السجلات الأمريكية بإسمه ، وكان عليه أن يجعل حرب اليمن مصيدة المصريين ، وأن تُباد القوات المصرية هناك ولا يعود منها أحد ، ويكفى ذلك لأن يسقط عبد الناصر ، وبأيدى المصريين .. وتعود اليمن إلى أئمتها الشرعيين .

وتولى المستر « كومر » التنسيق والتعبئة ، ولأنه كان قليل الثقة بالقوات « الإمامية » والسعودية فقد قرر أن يستعين بجيش من المرتزقة .

واختار مغامرا أمريكيا تسلل من عدة سنين إلى اليمن والتحق بخدمة الإمام واعتنق الإسلام وتغلغل فى حياة اليمن .

قالت صحيفة الهيرالد تريبيون الأمريكة : « وكان الحد الأدنى للأجر تسعمائة دولار فى الشهر للجندى وضمت قوات المرتزقة خليطا ، كان هناك فرنسيون وبلجيكيون حاربوا مع تشومبى فى كاتنجا خلال حرب استقلال الكونغو ، وكانوا تحت قيادة ضابط فرنسى من الذين تمردوا فى الجزائر ، وأصبح من قادة الجيش السرى الفرنسى الذى رفض استقلال الجزائر ، ودبّر الانقلاب العسكرى ضد الحكومة الفرنسية ، وكان المرتزقة الألمان يقومون بمهام الإشارة والاتصالات اللاسلكية وإدارة كل الأجهزة الدقيقة .

وكان البريطانيون أشدهم عداءاً لعبد الناصر وانضم ضباط منهم إلى أركان حرب الإمام .. وكان أشهرهم « الميجور جون كوبر » من قادة القوات الخاصة

ومن خبراء حرب العصابات وحارب طويلا فى الملايو ضد الثوار وكان الميجور برنارد مايلز البريطانى ، ربما أشهر ضباط المرتزقة » .

وتم تجنيد مرتزقة من نوع آخر ، كان من أشهرهم عضو فى مجلس العموم البريطانى هو « المستر تيك ماك لين » الذى عبأ عددا من أبرز قادة حزب المحافظين إدوار هيث ، ودنكان سانديز وجيلبرت مرى ، لكى يتبنوا قضية « الملكيين » فى المجلس ويدافعوا عنها .

وعلى الشاطىء الآخر تولى خبير أمريكى فى العلاقات العامة هو المستر « بوشورد هوارد » تكوين جماعة ضغط « لوبى » مؤيد للإمام فى الكونجرس الأمريكى .. وإقناعهم أن الحرب فى اليمن حرب « مقدسة » ضد قوى التخريب الشمولى والشيوعى التى يقوها عبد الناصر . ومادامت الولايات المتحدة الأمريكية قد ألقت بثقلها فى المعركة فلابد وأن ينضم ويتفانى جلالة شاه ايران .

وكان مدينا بعرشه لها ، وقد أعادته إليه بانقلاب دموى مشهور ، بعد أن خلعته الثورة الوطنية الإيرانية بقيادة الدكتور مصدق ، ونصبته بعد ذلك حارسا ووكيلا ثابتا لها ومساعدا لاسرائيل ، وربطت بينهما بعلاقات حميمة وثيقة ، حتى أصبحت إيران تسمى الحوش الخلفى لإسرائيل . ولهذا كان الشاه يحمل حقدا عارما لعبد الناصر الذى يبطل كل أحلامه ويقف حجر عثرة ضد مشاريعه . وشارك جلالته مشاركة سخية بالمال والسلاح والخبراء العسكريين الذين عملوا مستشارين للقوات « الملكية » والجنرالات الصغار والكبار من سيوف الإسلام . وعن طريقه تسللت اسرائيل إلى الميدان ، وأصبحت طرفا مع حماة الوطن والدين !

ولحق بموكب الحلفاء ، نظام الحكم الانفصالى فى سوريا ، وكان مدينا بقيامه للسعودية والمخابرات المركزية الأمريكية ، وتصدر المؤامرة العربية فى « شتورة » والتى أدت إلى إنسحاب مصر من الجامعة العربية ، تمهيدا لحصارها ونقل المعركة إلى أرضها .

وكانت سوريا الانفصالية ، من أعلى الأصوات تنديدا بغزو اليمن ، والعدوان على المملكة « المقدسة » ، واستباحة دماء المسلمين تحقيقا لأطماع « عبد الناصر » التى لا تقف عند حد .

ونافسها فى ذلك نظام عبد الكريم قاسم ، وكان نظاما مختلا معزولا ، انتهت إليه ثورة العراق عام ١٩٥٨ ، التى زلزلت نظام الدفاع الغربى الاستعمارى فى المنطقة ، وكان يعتمد على خليط متنافر من القوى السياسية من اليمين واليسار الشيوعى ، وقد شن حملة « أيديولوجية »» عنيفة على التدخل المصرى فى اليمن تحقيقا لطموح البرجوازية المصرية وزعيمها عبد الناصر فى الاستيلاء على السوق العربية ومناطق البترول خاصة .

واصطف الجميع تحت المظلة الغربية والتى قررت تدويل المعركة ، وأن تكون إحدى معارك العالم الحر الفاصلة .

وكتبت جريدة النيويورك تايمز الأمريكية تشرح مغزى الحرب فى اليمن وأهميتها .. قالت :

« هذه الحرب البعيدة المجهولة فى ركن قصى فى جنوب شبه الجزيرة العربية لا تقل أهمية فى نتائجها بالنسبة للعالم « الحر » عن حرب فيتنام ، وقد لايدرك كثيرون فى الغرب ماتعنيه هذه الحرب ولا يلقون اهتماما كبيرا بها لكنها حرب حاسمة وقد تُقرر إلى أبعد مدى مصير الشرق الأوسط .

وتستطيع هذه الحرب بسهولة أن تحسم ميزان القوى فى الشرق الأوسط وهل يكون فى صالح عبد الناصر وثواره أم فى جانب القوى العربية الصديقة والحليفة للغرب .

ولهذا لاتستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تتجاهل هذه الحرب والتى

جعلت من الشرق الأوسط كله برميل بارود متفجر » . وكان ذلك إعلان حرب صريح .

وكان جلالة الملك سعود يثق أنه على أرضه ، ولديه الخبرة بالصحراء ودروبها ومسالكها ويجيد أكثر من أى أحد آخر الحرب القبلية فى جبالها ووديانها ، وكانت بذلك الفرصة التى لاتعوض للقصاص المباشر ، من عبد الناصر ، بل للإجهاز على قواته .. قبل الإجهاز على نظامه ، وصدم جلالته صدمة عمره ، حينما قرر سرب من سلاح الطيران السعودى ، يضم تسعة طيارين ، أن يتمرد ، وأن لا يقوم بالمهام القتالية والإمداد التى كلف بها ، وأن يذهب بدلاً منها إلى القاهرة ، ويعلن تأييده للثورة اليمنية ، ويطلب اللجوء السياسى فى مصر بل الانضمام إلى قوات الثورة .

وذعر جلالته ، أكثر حينما انبثق « الضباط الأحرار » من قلب قواته المسلحة .

وقام جلالته محموما بحركة تطهير شاملة بين كل ضباط قواته المسلحة ، زعزعت كيانها ، وقدراتها القتالية ، وأشاعت الشك فى ولائها عامة .

وقد اقترح البريطانيون تجنيد عددا من الطيارين المرتزقة ، ولكن وجد أن ذلك سوف يفضح المملكة ، إذ لن يجدوا مطارات يهبطون فيها سوى المطارات السعودية فضلا عن أثره المرير على القوات الجوية السعودية عامة .

وبلغت الصدمة حد الفجيعة حينما أصدر ستة من الوزراء السعوديين ، وكان قد تكون لأول مرة مجلس وزراء عصرى برئاسة الأمير فيصل ولى العهد ، لمواجهة الموقف العصيب على الحدود ، أصدروا بيانا يؤيدون فيه الثورة اليمنية ، ويحتجون على موقف المملكة ويعارضون أى هجوم عليها ، وأى عون لآل حميد الدين لاسترجاع العرش ، كانت سابقة لم تحدث ، ولم يجرؤ أحد على القيام بها قط .

وخفف من الوطأة أنهم لم يكونوا وزراء من الأسرة المالكة ، ولكن مالبث هذا الوهم أن سقط ، ومالبث أن أعلن أحد الأمراء السبعة الذين يحكمون المملكة وهو الأمير طلال بن عبد العزيز خروجه على الإجماع ورفضه لموقف المملكة وتحديا للسلطة « المقدسة » غادر البلاد واتجه إلى القاهرة ، حيث أعلن لجوءه السياسى ، وصاحبه عدد من الأمراء الشبان الذين انضموا إليه وتكون التنظيم الفريد من نوعه والذى أثار رعب المملكة « الأمراء الأحرار » .

لم يسبق أن اهتزت الأسرة كما اهتزت لتلك الأحداث المتتالية ، وتجمدت كل مشاريع جلالة الملك الاستراتيجية ، وفضل الحرب غير المباشرة .

وكان جلالة ملك الأردن لايقل حماسا عن جلالة ملك السعودية . وكانت الأردن قد أصبحت منذ سنة ١٩٥٧ ، بعد الانقلاب والمصالحة محمية سعودية .

وقد نشأت القوات الأردنية وولدت لتكون قوة مرتزقة نموذجية من « البدو » والضباط البريطانيين وأدت دورها كاملا تحت قيادة جلوب باشا ومساعديه وأخمدت انتفاضة العراق خلال الحرب العالمية وسلمت اللد والرملة لاسرائيل خلال حرب فلسطين وأصبحت مصنع لإمداد دول شبه الجزيرة بكل الكوادر البوليسية والإدارية والعسكرية .. وبقيت مهمتها الرئيسية هى حصار ومواجهة عبد الناصر .

وكانت الأردن بصلاتها « العصرية » هى التى نظمت المؤتمر الصحفى « للإمام البدر » وتولى الصحفيون رسم الصورة العالمية للأمير العربى الفارس المجاهد ، ضد جبروت عبد الناصر الذى غزا بلده واكتسحها .

وقد استنفر جلالة ملك الأردن قواته .. الأكثر كفاءة وخبرة لكى تساند القوات السعودية ، وتشاركها الفخر .. ولكن صدم جلالة ملك الأردن صدمة لاتقل شدة حينما استيقظ ذات صباح ليعرف أن قائد سلاح الطيران الأردنى ، وسرباً من ضباطه ، قد تمردوا ، وهبطوا فى القاهرة وأعلنوا انضمامهم إلى سلاح

الطيران المصرى ، وكُلِّفوا بمهام فى اليمن !!

وعدل « جلالتهما » عن الاشتراك المباشر فى حرب اليمن ، وكان ثالث الملوك فى المغرب يتمنى لو استطاعت قواته أن تشترك لولا أنه كان مهموما بأحداث جسام توشك أن تتحقق على حدوده ! واستغرقت المملكة جهدا شاقا ، وأنفقت مالاً طائلاً ، لكى توفق وتنسق بين أمراء بيت ميد الدين الذين كان كل منهم بلا إستثناء يرى أنه أحق بالإمامة وبالعرش بعد استرجاعه ، والذى صدّق كل منهم التصريحات الطنانة التى كانوا يلقونها على الصحفيين العرب أو الغربيين « المرتزقة » والذين وجدوا لديهم مورداً سهلا وسخياً أو فى الإذاعات السعودية التى خصصت لهم أكثر من محطة إذاعة !!

إرتدى كل منهم ثياب القائد « العسكرى » والزعيم الروحى ، ولدى المناوشات الأولى تبدى الهزال الذى هم عليه ولم يحتشد الملايين كما أرادوا ولم يستطيعوا إرغام العمال اليمنيين فى السعودية ، والذين يبلغون أكثر من مليون على الإنضمام لهم ، وحينما حاولوا إرغامهم على ذلك قامت مظاهرات ، وتمرد هؤلاء ..

واتضح أن لاضمان ولا أمان سوى فى المرتزقة ، والفيلق الذى أنفق عليه ملايين الدولارات !

وقد أثارت حرب اليمن جدلا حاداً وعنيفا فى المؤسسة الأمريكية وكان الرئيس أيزنهاور الذى بايع جلالة الملك ووسمه حاميا قد ذهب وجاء رئيس من طراز مختلف ، أراد أن يغير من وجه أمريكا « القبيح » ومن كل سياساتها ، وأراد أن يبدأ بالعالم الثالث .

وقد شغلته وأرّقته مشكلة العالم الثالث وأن كل زعماء ثورات التحرر الوطنى وحكومات الشعوب التى حققت حريتها تناصب الولايات المتحدة العداء ، بل وترى فيها الخطر الأكبر على سيادتها واستقرارها ، وأنها تمنح ثقتها وصداقتها

الحميمة « للإتحاد السوفيتى » .

وقرر لهذا أن يكتشف السر بنفسه وأن يقيم العلاقات والجسور مباشرة مع هؤلاء الزعماء . واختار أشجعهم وألمعهم وأشدهم إثارة لحقد وحفيظة الأجهزة الأمريكية وهو جمال عبد الناصر .. واختار سفيرا أمريكيا عاش معظم حياته فى مصر أستاذا ثم عميدا للجامعة الأمريكية ، وكان من بين تلاميذه بعض رجال الثورة وأقطابها ، وكان شديد التعاطف مع الشعب الذى عاش بينه وعلّم صفوة من أبنائه ، وهو جان بادو .

وحينما قامت الثورة فى اليمن أثارت جدلاً حاداً عنيفا فى الدوائر الحاكمة الأمريكية بين المحافظين المتعصبين وذئاب الحرب الباردة وبين الليبراليين المستنيرين الذين كان يتزعمهم رئيس الجمهورية كيندى ، وأصر هؤلاء على أنه لابد للولايات المتحدة أن تتعلم من تجاربها الأليمة وفشل الاعتماد على قوى التخلف والرجعية فى العالم الثالث ، وأن دروس تشاينج كاى تشيك فى الصين وسنجما رى فى كوريا وجنرالات أمريكا اللاتينية وشيوخ البترول فى الشرق الأوسط لم يستخلص أحدٌ العظة منها .

لايمكن أن تقف الولايات المتحدة التى تحمى الديمقراطية ، وتملك الثروة والقدرة مع القوى العتيقة .. ضد القوى الفتية العصرية التى تريد أن تجدد وتبعث حياة شعوبها وبلادها ..

وأصبحت ثورة « اليمن » مفرق طرق ونقطة تحول تتحدد عندها السياسة الخارجية الأمريكية إزاء العالم الثالث كله ، وانقسمت المؤسسة الأمريكة كما لم تنقسم حول قضية أخرى ، وأخيرا انتصر فريق الرئيس وتقرر الاعتراف ، بحكومة الثورة ، وكان اعترافا بكل الثورة العربية التى كان يرمز إليها جمال عبد الناصر .

وقد قامت بينه وبين جون كيندى علاقة مراسلة فريدة ، فى سلسلة من

الخطابات أثرت أعمق التأثير فى كيندى بل وأراد أن يدعو عبد الناصر لزيارة الولايات المتحدة ، وأن يبدآ معا وضع أسس سياسة انسانية خلاقة للعالم الثالث .. ولم يقدر له أن يعيش ليحقق ذلك !!

وكان اعتراف الولايات المتحدة بالثورة فى اليمن لطمة قاصمة لجلالة الملك ، بل ولكل الملوك والأمراء والشيوخ ، ولم يثر قرار من الفزع والجزع ما أثاره ذلك القرار ، وتزعم الأمير فيصل رئيس وزراء السعودية مقاومة هذا التغيير وأعلن أن ذلك هو نهاية التاريخ بالنسبة للغرب والنفوذ الغربى فى المنطقة ، وأنه مبايعة وتتويج لعبد الناصر . وتتابعت الوفود والنداءات إلى واشنطن من ملك المغرب ورئيس جمهورية تونس « بورقيبة » حتى سلطان مسقط احتجاجا على القرار .

وبعد شهرين من قيام ثورة اليمن ، وقع الحدث المجيد الآخر والذى انتظره العرب جميعا سنوات طويلة ، وبدا لبعض الوقت أنه حلم صعب المنال ، استقلت الجزائر .

وكانت الجزائر قد عانت ١٣٢ عاما من الحكم الفرنسى لا تقل عن الأحد عشر قرنا من حكم الإمامة ، ولم يختلف الامبرياليون الفرنسيون كثيرا عن حكم الأئمة وقد طمست فرنسا « الحضارة و الثقافة » تاريخ وتراث شخصية الجزائر ، وقررت تحريم اللغة العربية ، وتحويل الشعب من الإسلام إلى الكاثوليكية . وصدرت مليونين من المستوطنين ليملكوا و يحكموا الجزائر ، التى أصبحت قوة واقتدارا مجرد مقاطعة فرنسية .. ونبذ الشعب الجزائرى إلى القاع ، وصدر نصفه إلى فرنسا للقيام بالأعمال « القذرة » التى لاينبغى أن يقوم بها الفرنسيون ، ورسف الباقون فى أغوار الجهل والفقر والمرض .

وانفجرت الثورة الجزائرية فى نوفمبر ١٩٥٤ ولم يختلف موقف فرنسا كثيرا عن موقف السعودية إزاء « الثورة » وأعلنت أن هذه أحداث شغب مفتعلة ، وقامت

بتحريض من الخارج ، وحملت جمال عبد الناصر المسئولية ، وأعلنت أنه لابد من إزاحته لكى تأمن الامبراطورية الفرنسية .

واشتعلت الجزائر .. وامتد الحريق الكبير إلى كل شبر منها .

وبدل المقاطعة الفرنسية قامت دولة عربية ثورية اشتراكية غير منحازة إعترفت على الفور بجمهورية اليمن .

واكتسبت الثورة اليمنية عمقا سياسيا واستراتيجيا آخر بعيد المدى بسقوط نظام عبد الكريم قاسم فى بغداد وكفّت الإذاعة العراقية وسيل المطبوعات والنشرات « الماركسية » عن التنديد بالتدخل المصرى الغاشم فى اليمن ، وذلك لإجهاض الثورة هناك ، كما أجهضت الثورة فى مصر ، ولتحقيق مطامع البورجوازية المصرية « الحاكمة » فى التوسع والنفاذ إلى مناطق البترول ، وفى الاستيلاء على سوق « اليمن » ، وأن تنطلق منه للاستيلاء على السوق العربية عامة .. و « التاريخ صراع أسواق » !!

ثم سقط نظام الانفصال فى سوريا وبعد عمر لم يتجاوز العام ونصف العام وكان انجاز الملك سعود الذى ملأه زهوا وفخارا وكلفه اثنى عشر مليون جنيه استرلينى .

وكان النظام يحمل منذ قيامه كل أسباب سقوطه ونهايته ، وقد اعتمد على أطراف متناقضين لايجمعهم سوى هدف واحد هو « هدم الوحدة » ولكن لأسباب مختلفة !!

ولم تعد إذاعة دمشق تصب حملاتها اليومية المحمومة ضد التدخل الغاشم فى اليمن ، وتحذر اليمنيين « الأحرار » من نواپا التسلط ومشاريع الاستعمار المصرى.. وأن يتخذوا من سوريا نموذجاً فى كيفية الخلاص منه !!

المعركــة

كان العامل الحاسم بالطبع هو القوات المسلحة المصرية ، وقد ذهبت على عجل وبلا خرائط أو معلومات أو خطط استراتيجية معدة من قبل ، وكان كل اعتمادها على إيمانها بالقتال فى سبيل قضيةعادلة والوقوف مع شعب شقيق يسترد حقوقه وحضارته .

وكانت المهمة فى البداية بالغة المشقة واكتنفتها عقبات وعثرات واستشهد فيها زهرة من الضباط والجنود ، ولكن لم يستغرق الأمر طويلا ، حتى سدت القوات المسلحة كل الثغرات واستوفت كل المعلومات ، ورسمت كل الخطط « الصحيحة » ونسقت بينها وبين قوى الثورة اليمنية التى كانت تفيض شجاعة وفداء . ثم شنت الهجوم الذى زلزل كل أركان شبه الجزيرة والذى اكتسح كل القوات المعادية ، ووطد دعائم الثورة فى كل مدن اليمن ومن حدودها فى أقصى الشمال حتى الجنوب . وكانت إحدى العمليات العسكرية المجيدة فى العصر الحديث ، بل وأعظم عملية عسكرية فى شبه الجزيرة كلها منذ اكتسح إبراهيم باشا قوات آل سعود التى كانت تمولها وتسلحها شركة الهند الشرقية وتسخرها للتوسع البريطانى واستلاب أراض الامبراطورية العثمانية وبذلك كسبت السباق فى المسألة الشرقية .

وأدركت السعودية والملكيون وكل الأطراف ، أن القوة التى نزلت قاصمة لا تقهر .. وأن مابقى هو مجرد عمليات تطهير ثانوية وأن الجمهورية باقية .. لم يعد هناك من يشك بعد « هجوم رمضان » كما سمى أن هناك خطرا ذا قيمة يهددها .

وكان هجوم رمضان يعنى بناء العمود الفقرى « للقوة اليمنية » ، وامتزج الدم المصرى بالدم اليمنى ، وولدت رفقة السلاح العربية فى صورة نموذجية .. ولم يعد هناك مايمكن أن يُعيد عقارب الساعة أو يعطل قوانين التاريخ .

انتقمت الثورة لكل الانتكاسات الماضية وذعرت كل القوى المعادية من استعراض القوة والقدرة العربية ..

وفشلت كل أوهام « فيتنام » لم يذهب الجيش المصرى معتديا أو مفروضا كما ذهبت القوات لمساندة قوى التخلف والاستبداد ، ولكن ذهبت قوى ثورية مسئولة لتساعد ثورة أحاطت بها كل الأخطار .

كان السلاح الحاسم هو عدالة القضيتين اللتين تحارب بهما القوات المصرية واليمنية .

وقد استماتت المستر « كومار » القائد الحقيقى للحرب وشحذ كل قواه وأسلحته ، وكل خبرة البنتاجون فى الحروب المحلية ، وكل أسلحة الترسانة الأمريكية فى التدمير والإرهاب ، واستماتت معه الميجور « كوبر » واستنفد كل خبرة الملايو وكينيا وآخر حروب الامبراطورية ولكن بلا جدوى ، ربما استطاع أن يحقن القوى الإمامية والقبلية ببعض حقن الدم ، وربما استطاع القيام بغارات قطاع طرق هنا وهناك ، واستطاعت أن تستولى على بعض مناطق جرداء غير ذات قيمة استراتيجية ، ولكنها لم تستطع قط أن تغير من ميزان القوى ، ولم تستطع قط أن تهدد بقاء الجمهورية .

وتأكيداً لالتزام الجمهورية العربية المتحدة وتأكيدا للسلطة الثورية زار عبد

الناصر اليمن .. وخرجت جماهيرها وقبائلها وقادتها وزعماؤها ، تماما كما تخرج جماهير سوريا وجماهير مصر .. وأكدت ولاءها المطلق للثورة .

وأعلن عبد الناصر — فى صنعاء — أن مصر ستبقى إلى آخر الطريق حتى تأمن الثورة اليمنية وستفى بكل التزاماتها التى تفرضها عليها مبادؤها .

وفقد المستر « كومر » مصداقيته وأصبح موضعا للهزء والزراية ومثاراً للسخرية فى البنتاجون ونموذجا للفشل السياسى والعسكرى .

وقد حصل المستر « كومار » على أقصى ما طلبه ، وشارك سلاح الجو الأمريكى فى حماية سماء اسعودية وفى محاولة إرهاب الجمهورية ، وقد خدمه الحظ بإغتيال كيندى وتولى جونسون رئاسة الجمهورية الأمريكية وكان على العكس تماما ، يُكنُ حقداً عارما لعبد الناصر ، ويتمنى لو استطاع الإجهاز عليه وعلى نظامه وعلى كل النظم « الثورية » العربية ، وأن يؤمن الأعمدة الثلاثة إيران واسرائيل والسعودية .

وكان جونسون مغامرا ، دمويا وقد أمر بالغارات المدمرة ضد شمال فيتنام والتى استفزت ضمير العالم ، وغرق فى الوحل فى جنوب فيتنام ، وكان يتمنى لو استطاع أن يفوز بنصر فى الشرق الأوسط .

ومنذ نهاية عام ١٩٦٤ وبداية عام ١٩٦٥ ، بدأت السعودية تلوح بالسلام والبحث عن حل سياسى ، وبالطبع أدركت عقم واستحالة الحل العسكرى .

وبدأ البحث عن الحل السياسى ، وطبقا للسياسة والدبلوماسية السعودية المزدوجة ، كانت تعرض السلام فى الوقت الذى شنت فيه حملة دعائية أن القوات المصرية واليمنية أرهقت وأنها تريد الصلح . وفى الوقت الذى لجأت فيه إلى سلاح آخر أخطر .. وهو محاولة الغزو من الداخل ، وذلك بإثارة الوقيعة بين المصريين واليمنيين من جهة وإثارة الوقيعة بين الجمهوريين أنفسهم من جهة أخرى ، وبدأت

الحرب السياسية وكانت مرحلة معقدة شاقة لاتقل عناء عن الحرب بالسلاح .

وكان هناك جيش مصرى آخر ، يحارب فى جبهة أخرى ، وكان يتكون من كتائب وفرق من المدرسين والمهندسين والأطبا، والاداريين .. انتشروا فى كل أرجاء اليمن ، فى أقصى القرى التى لم تَرَ غريبا من قبل ، وانطلقوا يبنون الأسس التى تقوم عليها اليمن الحديثة ، ويقطعون الألف ميل فى بضع خطوات حتى يقفز اليمن فوق أحد عشر قرنا ، وكانت الثورة قد رفعت كل الحجب والغشاوات التى أسدلت على عقول وأرواح الجماهير وانطلق سيل من الطاقات والمواهب الحبيسة .

وأرسى هذا الجيش فى كل شبر من أرض اليمن « نصباً خالداً » لما يمكن أن يسمى رفقة « البناء » والتى لا تقل عمقا ودفئا عن رفقة السلاح والدماء !

وقد عقد البعض مقارنة بين ما حققه هذا « الجيش » وما حققه علماء الحملة الفرنسية الذين صحبوا نابليون فى غزوته لمصر ، وكان اللقاء والتفاعل بينهم وبين علماء الأزهر هو الشرارة ، التى أطلقت الثورة الثقافية المصرية ، ولكن هناك فرق هذا الجيش ذهب بناء على طلب وإلحاح الثوار اليمنيين ، بل لقد ذهبت طلائعه من قبل بناء على طلب الحكومة « الإمامية » ، ولعب دورا ، يمكن مقارنته بدور مثقفى التنوير الذين سبقوا قيام الثورة الفرنسية ومهدوا لها .

قام هذا الجيش بدوره فى تأمين وتوطيد دعائم الثورة ، وفى تحقيق النصر العسكرى وكان الأئمة يعتمدون أولا وقبل كل شىء على الجهالة والتخلف ، وكانت أول أخطاء الملكيين أنهم لم يحسبوا حساب التنوير .

وتكلل العام بحدث مجيد وأُعلنت الثورة اليمنية الثانية فى ردفان فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

لم يكن ممكنا أن تشتعل شرارة الثورة فى الشمال وأن تسحق قوى الاستعباد

والاستبداد بطوله وعرضه ويظل النصف الآخر متفرجاً أو ساكنا ، وعلى الفور انقلبت بريطانيا من الهجوم إلى الدفاع المذعور ، كانت تتزعم الحلف وتؤلب كل قوى العالم الإقليمية والدولية ، لتصفية الثورة ، وإذ بالنار تشتعل تحت أقدامها .

وكان عليها أن تهرول إلى الجنوب ، وتتالت الحرائق فى كل مكان وتداعت آخر الأعمدة « السبعة » للامبراطورية .

وكانت هذه هى الشواطىء والمواقع والمياه التى دارت عليها معارك الامبراطورية منذ أربعة قرون ولم تقف ، ضد البرتغاليين ، والهولنديين والفرنسيين ، وتضاعفت أهميتها مائة مرة بعد أن غربت الشمس على معظم « الضياع » ، ثم بعد أن تفجر البترول .

وكانت بريطانيا قد انصبت من ١٩٥٦ على تحصين تلك المنطقة وعلى إبتكار إطار سياسى تستطيع أن تجمع فيه كل القوى المعتدلة والموالية ، ولأن تُكوّن منها دولة تضمها إلى الكومنولث وتحميها من كل تقلصات وتقلبات العالم العربى ، وبالفعل كونّت ماسمى حكومة الجنوب العربى ، ضمت محمية عدن والسلاطين والشيوخ و « الأمراء » .

وحينما قامت الثورة سارعت بريطانيا وفق تقاليد السياسة البريطانية العتيدة .. بالاتصال بهم ، وعرضت على الجمهورية الاعتراف مقابل إعترافهم بالحكومة القائمة فى الجنوب ، ورفض الثوار العرض على الفور ، ولم يترددوا أن يؤكدوا أن الثورة لتحرير وتوحيد كل اليمن .

وعلى الفور تقدم البريطانيون بالعرض إلى الملكيين الذين قبلوه مقابل أن تقدم لهم بريطانيا معوناتها الاقتصادية والعسكرية .

وكانت بريطانيا لهذا أشد الأطراف حماسا ، ولم تجند خبراءها وضباطها المرتزقة فحسب ، ولكن جندت القبائل الموالية لها وعلى رأسهم قاطع طريق ذو شهرة فى

شبه الجزيرة هو شريف بيحان واستطاعت أن تلحق بعض الخسائر وأن تثير الكثير من المصاعب أمام القوات المصرية والجمهورية .

ولم يكن هناك رد يمكن أن يردع البريطانيين سوى نقل المعركة إلى الجنوب ، وكانت وحدة اليمن مطلبا قوميا لكل اليمنيين وقد شطر وطنهم إلى قسمين : استأثر بأحدهما الاستبداد ، واغتصب الآخر الاستعمار .. وسحق شعب اليمن بين الإثنين .

وفى أغسطس سنة ١٩٦٣ تكونت جبهة قومية لتحرير جنوب اليمن المحتل من كل القوى الفتية فى اليمن شمالاً وجنوباً ، وتولت القوات المصرية ، تدريب الكوادر « السرية » .. تدريبا مكثفا ، وتحددت ساعة إعلان الثورة فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٦٣ فى جبال ردفان .

وبعد أقل من عام كان عبد الناصر « بطل السويس » يوجه لهم إنذاراً من صنعاء بأن عليهم أن يحملوا عصاهم ويرحلوا ..

وبدأ العد التنازلى .. كانت آخر المعاقل ، وكانت بريطانيا تتشبث به رمزا لمجد الماضى ، ورأس جسر لوجودها على حدود امبراطورية البترول .. واستمرارا لأول وكالة افتتحتها شركة الهند الشرقية منذ ثلاثة قرون لتجارة البن والتوابل والترانسيت من الشرق وإليه .

منذ نهاية عام ١٩٦٤ ، وبداية عام ١٩٦٥ تأكد القائد المغوار « كومر » أن الحرب بالنسبة له قد دخلت طريقاً مسدوداً ، ربما يستطيع بسلسلة من أعمال قطع الطريق أو غارات النهب واضرب والهرب ،أن تحقق بعض الخسائر والمصاعب، ولكن لن يستطيع أن يجعل منها حرب استنزاف تدفع المصريين إلى التفكير فى الجلاء ، وقد أكد عبد الناصر وأعلن تصميمه على أن مصر باقية حتى تتوطد أركان الجمهورية اليمنية ، وحتى تستطيع الثورة أن تعتمد على نفسها فى الأمن

والحماية .. ولم تعد الحرب حرباً أهلية بين اليمنيين أو حربا بين مصر والسعودية ، ولكن حربا عربية عامة بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة ، ولايمكن مهما كان الثمن غاليا أن تنتكس الثورة .

وفى نهاية سنة ١٩٦٤ عقد أول مؤتمر قمة عربى فى القاهرة ، وكان بداية دبلوماسية عربية جديدة وخلاقة وعقد رداً على المشاريع الأمريكية الاسرائيلية لتصفية القضية الفلسطينية ، واستيعاب اللاجئين ، أى حل القضية الفلسطينية بمحوها من الوجود ، وتمخض المؤتمر عن أهم نتيجة وهى ولادة منظمة التحرير الفلسطينية وجيش التحرير الفلسطينى وتصميم مصر على القضية بصفتها قضية شعب له نفس الحق فى تقرير المصير ، وكان ذلك دخولاً بالقضية إلى مرحلة جديدة ، وتبديداً للوهم الإسرائيلى الأمريكى بأن القضية قد انتهت ولم يبق سوى دفنها .

وقد حدث فى نهاية عام ١٩٦٣ والصراع على أشده فى اليمن ، أن تصور ملك المغرب أنه يستطيع أن ينتهز الفرصة لكى يحقق سياسته فى احتواء وردع ثورة الجزائر ، وتلقينها درساً فى البداية يؤمّن به حدوده ووجوده ، وافتعل حرباً مع الدولة التى لم يكتمل عامها الأول ، وتصور أن مصر المستغرقة فى الكفاح فى اليمن سوف تتريث فى مساعدة الجزائر ، لكن كان التزاما ، أثبت كفاءة وإيمان القوات المسلحة المصرية برسالتها ، ومعنى تصميم عبد الناصر ، ودخلت القوات المسلحة المصرية إلى حدود الجزائر ، وكان وصولها إنذار ردع ملك المغرب ، الذى سارع بطلب المصالحة .

ورأى المستر « كومر » أنه لا طريق سوى تكثيف سياسة الخلخلة وإشاعة القلق الدائم وعدم الاستقرار وتفجير المتناقضات والصراعات حتى لا ينعم النظام الجديد بأى هدوء ، وأن يتهاوى من داخله .

وهذه سياسة الغزو من الداخل ، وكانت تعتمد على الإيقاع بين المصريين

واليمنيين وهو أمر لم يكن يبدو صعبا ، مع الوجود المكثف للقوات المصرية ، والايقاع بين اليمنيين أنفسهم ، مابين الجمهوريين وفصائلهم المختلفة ، وكانت اليمن ، ترزح تحت ركام ثقيل من متناقضات ، وصراعات ألف عام . ثم مع تباين الآراء والاتجاهات والمصالح بين ثلاثة أجيال من الثورة ، السياسيون الأحرار التقليديون ، والضباط الأحرار العصريون ، ثم جيل جديد نما بسرعة متزايدة فى ظل الثورة ، هم المثقفون الأيديولوجيون . كانت حقبة الصراع الأيديولوجى الحاد فى المعسكرات العالمية ، وكانت حقبة الشباب المتمرد فى الغرب ، وكان لابد وأن تنتقل وتمتد .. حتى إلى اليمن .

ورأى المستر « كومر » أن تتحول الحرب من معارك مباشرة إلى سلسلة من أعمال التخريب والتدمير ، تقوم بها شبكات وعصابات تثير الفزع هنا وهناك ، وتقوم بالاغتيالات ، وتمارس الإرهاب ، وتشيع القلق دائما ، وكان هذا ميدانه الحقيقى ، والذى مارسه فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية .

تقرر نقل المعركة إلى الداخل إلى صنعاء .. وإلى القاهرة .. لايمكن أن تقف فى صنعاء ، لابد من ضرب « الرأس » المفكرة المدبرة هناك ..

وبدأ الاستعداد للاستراتيجية الجديدة ، وكان لابد من تهيئة مناخ عام لها ، ولأن المناخ المصرى لم يعد ملائما ، فقد قرر جلالة ملك السعودية والذى أصبح الملك فيصل الذى خلع أخاه واستولى على العرش أن يتولى تنفيذ ما عجز أخوه عن القيام به ، وهو نقل المعركة إلى الداخل بطرق أخرى . لابد من إعداد « شتورة » أوسع وأشمل ، تكون اسلامية ، وتحبذ وتعبىء العالم الإسلامى .. وسوف يكون أكثر وعياً بالخطر وإحساسا به . وقام بجولة إسلامية واسعة يؤلب الدول الإسلامية ضد الخطر الداهم الذى تتعرض له الأماكن المقدسة ، ومهد الإسلام والرسالة النبوية وأن اليمن التى لعبت دوراً تاريخياً فى نشر الإسلام والفتوحات الإسلامية أصبحت الآن قاعدة لزحف الشيوعية والإلحاد يقوم به

جيش غازى من المصريين « الكفار » تسانده قوى الإلحاد العالمية « الإتحاد السوفيتى » وأنه لابد للعالم الإسلامى أن يستيقظ وأن يتكاتف ليحمى العقيدة !!

ولم يكن بين البلاد الإسلامية التى زارها من يؤمن بأى مصداقية للملك أو لمملكته ، والتى كانت صورتها لديهم أو لطريقة حياتهم والتصرف فى إموالهم .. غير إسلامية ، وكانت معظم تلك البلاد شعوباً وحكاماً .. ترى فى عبد الناصر ، الزعيم والذى يرسله الله على رأس كل قرن ليجدد مجد الإسلام والمسلمين .

وكانت الرحلة فى حقيقتها مجرد غطاء لعقد الحلف الإسلامى وأن يكون محوره ، الحلف بين الدولتين الاسلاميتين الرئيسيتين إيران والسعودية أن يتم التصالح بين إمام الشيعة وإمام السنة كما تم التصالح بين الهاشميين والسعوديين وأن يساهم إمام الشيعة فى استعادة العرش الزيدى « الشيعى فى اليمن » .

وكان جلالة الملك يعرف بلا شك مدى العلاقة الوثيقة الحميمة التى كانت تربط الشاه باسرائيل .

وكانت إسرائيل ذات خبرة فى أعمال الغزو من الداخل والتخريب والتدمير والاغتيال والحرب النفسية والإعلامية . وأصبحت عضوا منتسباً إلى الحلف الإسلامى !!

وقد بدأت أول عملية مدوية فى القاهرة ، ووضعت خطة مؤامرة مروعة مدمرة كانت أول عمل من نوعه تهدف إلى تدمير « مصر » كل ماأقامته ثورة عبد الناصر ، بل كل ما تعتمد عليه حياة مصر المدنية من القناطر الخيرية إلى معمل الطاقة الذرية ، إلى السد العالى ، كان حقداً أسود أعمى ، لايبقى ولا يزر .

وبدأ التمهيد العقائدى لهذه المؤامرة بإعلان نظرية فقهية جديدة تعلن تكفير النظام فى مصر ، وأنه ارتد إلى الجاهلية وأصبح دمه مهدرا ، ولابد من الجهاد

بالسيف لرد مصر إلى الدين والإسلام الحنيف .

وقد اكتشفت المؤامرة الإخوانية السعودية فى اللحظة المناسبة وكان الذى اكتشفها هو التنظيم الشعبى « الاتحاد الاشتراكى » وليس أجهزة الأمن ، وحوكم المتآمرون وأعدم رؤوس الفتنة ، وسقطت محاولة نقل المعركة إل القاهرة والغزو من الداخل .

وبدأ تفجير الصراع الداخلى للثورة اليمنية على أيدى أقطاب الأحرار ، وذوى الصلة القديمة الوثيقة بالإخوان المسلمين والذين لم تقطع صلتهم بهم ، والذين مدوا جسوراً من وراء ظهر الثورة مع السعودية بعد أن أقلقتهم تيارات واتجاهات الشباب الجديد سواء من العسكريين أو المثقفين .. وبدأوا يثيرون قضايا كان الوقت مبكرا وغير مناسب لإثارتها ، ورفعوا شعارات ضرورة الاعتماد على النفس ، والبدء فى جلاء المصريين والتصالح بين كل اليمنيين .. أى مع الملكيين باستثناء آل حميد الدين .

والصراع الداخلى طبيعى فى كل الثورات ، ولكن فى إطار الثورة وليس لفتح ثغرات للثورة المضادة ولإشاعة البلبلة فى صفوف الثورة ، فى مرحلة مازالت دقيقة وحرجة .

ونفذت الجرثومة ، وانشق بعض الضباط الذين كان لهم سجل شجاع فى الثورة ، ووقعوا فى الفخ .. ودبروا إنقلابا عسكريا على النظام الجمهورى ، ولكن اعتقلوا فى الوقت الملائم ، وحوكموا علنا وأعدم قادتهم ، وكانت محنة ، ولكن خلعت قلوب أى من تحدثه نفسه بالتآمر ، وأن لا أحد يملك أو يستطيع استغلال منحنيات ومنعرجات المسيرة ، لضرب الثورة أو الانحراف بها ، وبلغت ذروة عمليات المستر « كومر » ورجاله المرتزقة والاسرائيليين ذروتها فى عملية خائبة بائسة أثارت فضيحة كبرى للولايات المتحدة إذ استغل قنصلية الولايات المتحدة

وسفارتها ، ومركز النقطة الرابعة الأمريكية للمساعدات كمراكز للتآمر والتخريب ، وفى إحدى العمليات أطلقت اصواريخ من مركز منها على مخازن سلاح ، وكان ذلك يعنى تدمير مدينة تعز ، والقضاء على آلاف من سكانها ، وفشلت العملية وقُبض على كل المتآمرين الأمريكيين واليمنيين ، وثارت حكومة الولايات المتحدة ونفت التهمة ولكن اعترف المتهمون ، وطرد الأمريكيون وحوكم اليمنيون وأعدموا .

وقد ردّ عبد الناصر بلطمة قاصمة زلزلت أركان النظام السعودى ، والإيرانى .. ثم الأجهزة الأمريكية التى كان مندوبها السامى « كومر » ومساعده « بروس كونده » يتنقلان من فشل إلى فضيحة إلى فشلٍ أكبر وفضيحة أشد خزياً .

قبل عبد الناصر طلب الملك سعود المخلوع للجوء السياسى فى مصر .. فقد أملى عليه خلقه وشهامته أن يستجيب لملك اعتذرت بلاد كثيرة يودع أمواله فى بنوكها ويستثمرها فى أرضها أن تمنحه هذا الحق .

وجاء الملك إلى مصر .. وطلب أن يذيع رسالة من « صوت العرب » الذى عاش يشكو ويضج منه ، إلى شعبى السعودية واليمن وندد فيه بالنظام القائم فى مملكته ، وتبعيته وانطوائه تحت جناح الاستعمار وفى خدمته ، وندد بسياسته إزاء الجمهورية اليمنية وحيا شعب اليمن .. وأعلن تأييده للثورة ، التى نصرت العروبة والإسلام .

وأسقطت الإذاعة كل حجج وافتراءات جلالة شقيقه الملك فيصل ، ودعاواه الزائفة باسم « الإسلام » .

وكانت الضربة القاصمة ، والتى زلزلت شبه الجزيرة عامة ، هى زيارة الملك سعود إلى صنعاء وخطابه هناك فى الميدان الكبير وإلى جواره عبد الله السلال رئيس الجمهورية ، وقادة وأقطاب الدولة وتحيته لهم .. وتمجيده لكل ماقاموا به

واعتذاره بالطبع عن كل ما فعله ضدهم .

لم يستطع جلالة الملك فيصل ، وحلفاؤه ومستشاروه أن يجدوا ردا على الزيارة ، وخطب الملك ، سوى مصادرة أملاكه ، وقطع مخصصاته ، وليس تفنيد ماجاء فى خطبه وتصريحاته .

ولم يستطع المنحرفون من الجمهوريين أو المتآمرين من الملكيين أن يخدعوا القوى الحقيقية للثورة والنواة الصلبة التى خلفتها والأساس الشعبى الذى أرسته فى أرض اليمن وبين جماهيرها .

الصمـــود

كانت حرب ١٩٦٧ امتدادا واستمراراً لحرب اليمن « بطريقة أخرى » .

فشلت استراتيجية « فيتنام » العربية واستدراج عبد الناصر الى البيداء ومجاهل الجبال والصحراء ، والإجهاز على قواته هناك ، وأصبح البديل الوحيد هو الهجوم المباشر من الخارج والداخل معا ، وتكفلت اسرائيل بالمهمة التى قامت من أجلها واشترك معها كل الأطراف التى كانت تحارب فى اليمن، كلها بلا استثناء .. وقام الطابور الخامس فى الداخل بمهمته خير قيام .

قال الرئيس الأمريكى ليندون جونسون بعد الحرب : « هذا أجمل نبأ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وقد انتهت مشكلة الشرق الأوسط وانتهى « هتلر » الصغير على ضفاف النيل .

وقال موشى ديان : « إنى أنتظر إلى جوار التليفون أن يطلب عبد الناصر الحضور إلى هنا أو يطلب أن أذهب إليه .. لعقد الصلح » .

ولم تكن سعادة جلالة الملك أو جلالة الشاهنشاه أقل ، وقد ساهم كل منهما مساهمة فعالة فى الانجاز الكبير .

تقرر الإجهاز على القوات المصرية فى اليمن ، وقد أصبحت قوات بعيدة

معزولة ، مضعضعة الروح بلا شك ، بعد هزيمة القيادة العليا ، وسوف لا تملك إرادة القتال أو القدرة عليه وقد انقطعت خطوط الإتصال والتوجيه ، وخطوط الامداد والتموين .

ولن تكون هناك أية صعوبة فى الإجهاز عليها ، بل وإبادتها ، وسوف تكون هذه ذروة المأساة ، وسوف تدفع القوات المسلحة المهزومة فى مصر إلى التمرد والشعب إلى الانتفاض .. للخلاص من عبد الناصر هذه المرة .

وكانت المفاوضات قد دارت حول إنسحاب القوات المصرية فى اليمن ، وكان الشرط أن تنسحب بغير أسلحتها تأكيدا لهزيمتها أو استسلامها ورفض الشرط رفضا قاطعا ..

وبدأت حرب الإبادة وكتبت صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية : (حارب المصريون بعنف وضراوة وربما كما لم يحاربوا من قبل .

ولا شك أنهم أرادوا أن يغسلو بعض العار الذى لحق بهم وبلا ذنب فى سيناء ، وأن يخرجوا من اليمن وهم رافعوا الرأس .. وقد كان) !

وأصبح كل هم الأطراف الأخرى أن تُنسحب القوات ، وبالشروط التى تريدها ، وذلك حتى تبدأ الفصل الثالث والأخير ويسدل الستار نهائيا على « مغامرة » اليمن !!

ولم يساورهم أى شك أنها سوف تكون أسهل المراحل والمهام . إن جلاء القوات المصرية عن اليمن ، حاملة أسلحتها ، سوف يترك اليمن فارغة خاوية عاجزة ، ولن يكون الطريق إلى صنعاء أكثر من نزهة أو استعراض عسكرى لن يستغرق سوى بضعة أيام على الأكثر .

وسوف تستقبل القوات الملكية وعلى رأسها الإمام « الشرعى » استقبال

الفاتحين ، فإن الغالبية العظمى من اليمنيين قد ذاقوا الأمَرَّين من القوات المسلحة المصرية ومن الإدارة المصرية التى استأثرت بكل السلطات وحرمت أهل البلاد وأصحابها الشرعيين من حقوقهم وسيادتهم !

ولم يخلف المصريون وراءهم سوى قوات « هزيلة » لم تمارس القتال سوى بأدنى نصيب ، ولن تجرؤ على المقاومة إن لم تبادر بالتسليم .

وقد انتعشت آمالهم و « ازدهرت » حينما حدث انقلاب ، بمجرد انسحاب القوات المصرية ، وأطاح برئيس الجمهورية والقائد العام عبد الله السلال . وقامت به القوات « المعتدلة » والمنحرفة من أقطاب الأحرار « التقليديين » وعدد من الضباط الكبار . وكان السلال قد سافر إلى مصر والعراق والاتحاد السوفييتى ، لكى يتفاوض مع قادة هذه الدول حول أوضاع اليمن بعد انسحاب القوات المصرية ، وما يمكن أن يسفر عنه ، وما يمكن أن تحتاجه فى ظل الواقع الجديد .

وكان السلال هو « الأب الروحى » الذى أنقذ الثورة وقادها منذ الليلة الأولى ، واجتاز بها أحرج المواقف وأشق الأزمات ، والذى استطاع أن يوفق بين كل القوى وأن يجمع بين كل الأطراف ، وأن يكون المظلة العريضة التى يأتلفون تحتها .

وكانت تهمته التحيز لمصر والمصريين لأنه كان مؤمنا بأن مصير الثورة اليمنية يرتبط بمصير الثورة العربية عامة ، وأن لا حياة ولا نجاة لأى منهما بدون الآخر ، وقد عارض معارضة شديدة انسحاب القوات ولكنه قبل فى النهاية مدركا وطأة الظروف ، وقرر أن يسافر بحثا عن تعويض مايتركه وراءه ذلك الانسحاب .

وتولت السلطة حكومة جديدة ، يرأسها مجلس جمهورى ، على قمته أقطاب الأحرار التقليديين ، ووزارة جديدة يرأسها سياسى لم يعرف بتعاطفه مع الوجود المصرى . وبدت الحكومة متطلعة إلى الشمال حريصة على مهادنة ومسالمة الطرف

الآخر والوصول معه إلى تسوية شاملة .

وفى ظل هذه الحكومة وجدت عناصر الطابور الخامس المناخ ملائما لتخرج من مخابئها وتبدأ نشاطها ، وأن تثير القلق وتبث الشائعات ، وتهيئة للمناخ العام العربى والعالمى ، بدأت حملة إعلامية واسعة فى الصحافة وأجهزة الاعلام الغربية والعربية ، تتنبأ بالأحداث المحتملة فى اليمن ، وأن الطريق إلى صنعاء أصبح مفتوحا ، وأن الجماهير فى اليمن عامة تنتظر عودة « إمامها » الروحى وحاكمها الشرعى ، واشتركت الصحف العربية الموالية ، وكانت قد تكاثرت خاصة فى بيروت بعد أن أدركت المملكة مزايا « الإعلام » ووسائل تسخيره ، ولكن ما أثار أشد المرارة والألم كان اشتراك بعض الصحف المصرية فى الحملة ، وقد تسللت قوى الثورة المضادة بعد الهزيمة ، وعاد للحياة بعض كُتابها وأبواقها ، وانصبوا على « مغامرة » اليمن ، وآلاف الأرواح التى ضاعت ومئات الملايين التى تبددت ، وبلا جدوى لأن صنعاء توشك على السقوط . وانتقلت العدوى إلى أجهزة الإعلام السوفيتية . وأعلنت وكالة تاس : « أن صنعاء لن تستغرق أكثر من بضعة أيام » .

ونفذت الحملة الصاخبة الطاغية إلى داخل اليمن ، وأثارت ما لابد وأن تثيره من القلق والفزع ، وامتدت آثاره لتشيع التردد والتخاذل فى نفوس كثيرة ، حتى بين من لم يعرف عنهم ذلك من قبل ، بدأ كثير من السياسيين والعسكريين والمثقفين « يراجع » المواقف ، ويوازن بين البدائل .. ولكن استنفرت الحملة بصلفها وضراوتها ، قوى الثورة الحقيقية ، والقوى الفتية العارمة التى أنجبتها خلال عمرها القصير ، وبدأ الحوار الحاد حول الطريق الصحيح ، ودرءا لكل الاحتمالات ، وقررت المملكة السعودية وتداركا لكل مايمكن أن يكون سببا للفشل ، ولكى لاتترك ثغرة ولو ضئيلة وتقرر أن يعد للنزهة العسكرية أكبر قوة أعدت لمعركة فى كل تاريخ المملكة وسجل الحرب فى اليمن . أن تكون قوة لا تهزم ، وتدخل صنعاء فى موكب يشهده العالم كله ويثأر لكل العثرات السابقة ولا يمحى من ذاكرة

شعب اليمن .

كانت القوة مكونة من خمسة آلاف جندى نظامى دربوا تدريبا شاقا منذ شهر يونيو ، على أحدث الأسلحة ، وخمسين ألفا من رجال القبائل ، وزعت عليهم الأسلحة والذهب بسخاء ، بالاضافة إلى ثلاثمائة من الضباط المرتزقة الأوروبيين والأمريكيين والإيرانيين بل وانضم عدد من الاسرائيليين لاستخدام خبرتهم فى حرب ٦ يونيو ، وضعوا تحت قيادة الضابط سمايلى البريطانى . وساهمت الولايات المتحدة بثلاثمائة مليون دولار فى نفقات الحملة وتقرر أن يكون قائد الحملة « الأمير محمد بن الحسين » أشجع الأمراء وأخطرهم ، والذى ورث اللقب بعد سقوط ابن عمه البدر وعمه الحسن ، ولكن كان القائد الأعلى هو المغامر الأمريكى ورجل المخابرات المركزية الأمريكية والذى كان لبعض الوقت مستشارا للإمام ، واعتنق الاسلام وأجاد العربية وأصبح اسمه عبد الرحمن كنده ، وتحددت مهمة الحملة بأنها حسم الصراع عسكريا ، والاستيلاء على صنعاء وتصفية النظام الجمهورى .

وفى ظل القلق والحيرة والفزع الذى ساد لبعض الوقت ، استطاعت هذه القوات أن تنفذ حتى مشارف صنعاء وأن تحاصرها من كل الجهات وأن تقطع كل الطرق بينها وبين مدن اليمن الأخرى خاصة الحديدة وتعز ، وبدا الموقف عصيبا ، إن لم يكن قد وصل إلى حافة المأساة ، وتطلب الأمر استقالة الحكومة ، وأن تتولى حكومة جديدة عسكرية المواجهة والمقاومة ، وتم اختيار ضابط مخضرم من أقطاب الثورات الثلاث ٤٨ — ٥٥ — ٦١ ، وأحد أبطالها حسن العمرى ، وقد اشتهر بصرامته وفدائيته ، وكان قد مر بمحنة ثقيلة دامت عاما استبعد فيه من السلطة واعتقل ، ولكنه ضمد جراحه وأزاح مرارته وتولى القيادة .

وعقدت اجتماعات موسعة ضمت كل الفئات والطبقات ، من العسكريين والمدنيين وكل طبقات وفئات وأجيال الثورة ، وتم بحث الموقف العصيب بكل

وقائعه وتفاصيله وبقى الاختيار الصعب : المقاومة أو التسليم ، وفى أحد الاجتماعات ارتفع صوت ضابط شاب هاتفاً « الجمهورية أو الموت » ، وسرى الشعار كالنار فى الهشيم ، وأصبح هو شعار المعركة .. واتحد القرار التاريخى بالمقاومة وأجمع الكل على الموت شهداء قبل أن يطأ صنعاء قدم أى من الخونة الرجعيين .

وتقرر أن تكون القوات المسلحة اليمنية هى طليعة المقاومة ، أن تعيد ترتيب أوضاعها لكى تتحول من جيش نظامى إلى جيش مقاومة وطنية .

وكانت القوات المسلحة اليمنية حديثة العهد لايتجاوز عمرها بضع سنوات ، ولكنها تدربت وتكونت فى أفضل مدرسة يمكن أن يخرج منها المقاتلون وهى المعركة نفسها ، وكانت معركة فريدة فى نوعها تجمع بين كل أساليب القتال وأشدها قسوة وامتحانا للرجال ، وقد تكونت القوات المسلحة فى كنف الثورة سواء الثورة العربية أو اليمنية وفى رفقة سلاح صادقة مع القوات المصرية ولم يكن هناك أكبر من المعارك التى خاضوها معها واستشهدوا فيها معا ، واحتفلوا بالنصر فيها معا .

وكانت القوات الصغيرة لهذا تجمع بين الشجاعة والكفاءة ، ثم السلاح الذى لايمكن أن يملكه الخصم ، ولا تستطيع أموال الملوك أن تشتريه ، وهو الإيمان العارم بقضية شعب ووطن ، والحرب من أجل الحق والحرية لشعب حرم منهما لألف عام .

واتخذت كل الإجراءات لاعادة تنظيم القوات المسلحة اليمنية ، وكان أول الإجراءات وأهمها أن منح الضباط الصغار حق اختيار وانتخاب قادتهم ، الرجال الذين يضربون المثل ، ويكونون القدوة ويستشهدون وينتصرون تحت قيادتهم ، وتم ذلك وتدفقت الحماسة ، وتعاظمت روح القوات المعنوية ، وإرادة القتال حتى النصر .

وأعلن فتح باب التطوع للقوات المسلحة ، وهرع الشباب من كل أرجاء اليمن ، وتسللوا بكل الطرق ومن كل المنافذ إلى العاصمة ، وانخرطوا جميعا فى التدريب الشاق المكثف لكى يكونوا مقاتلين أشداء فى أيام وليس أسابيع ، وتكونت فرقا كاملة من أطفال وصبيان صغار بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، سجل لنفسه صفحة مجيدة فى تاريخ المقاومة والاستشهاد . وعاد كل الطيارين وطلبة الكليات والمعاهد العسكرية الذين كانوا يدرسون فى الخارج وتوزعوا على المواقع . وأقسم الجميع أن صنعاء لن تسقط والجمهورية لن تهزم .

وأعلن القائد العام أن الدفاع عن صنعاء وعن الجمهورية لن يكون مهمة القوات المسلحة وحدها ، بل هو فريضة على كل يمنى وعلى كل يمنية أيضا بعد أن حررت الثورة المرأة ، وأن هزيمة الجمهورية تعنى عودة « الإمام » وقرون العبودية والظلام ، وأعلن أن سقوط صنعاء سوف يعنى استباحتها مرة ثانية ، وأن تتكرر مذابح ومآسى ماحدث سنة ١٩٤٨ ومضاعفا مئات المرات .. سوف يقضون هذه المرة على كل شيء ، ويقتصون لكل ماعانوه .

وتكونت لجان المقاومة الشعبية فى كل مكان ، واشترك فيها الجميع ، ثم امتدت إلى كل شبر فى اليمن ، فى المدن والقرى وانتخبت المقاومة الشعبية لجنة وطنية عليا ، وأصبح عليها مؤازرة القوات المسلحة وإمدادها بالمتطوعين كلما احتاجت إليهم ، ثم المحافظة على الجبهة الداخلية تعبئها وتنظمها ، وتسد كل حاجياتها ومطالبها وحمايتها بتصفية كل عناصر الطابور الخامس .

وكانت أبرز معالم المقاومة الشعبية إشتراك المرأة اليمنية لأول مرة فى المقاومة سواء فى الميدان أو فى العمل السياسى وعادت أفواج غفيرة من العمال المهاجرين فى الخارج لكى تدافع عن الوطن الذى أعاد الجمهورية .

وتحولت اليمن كلها إلى جبهة مقاومة انصهرت فيها كل قوى الثورة

والجمهورية ، وأعلنت القيادة العامة العسكرية وقيادة المقاومة الشعبية أن معركة اليمن هى معركة الثورة العربية عامة ، أن سقوط صنعاء يعنى انهيار قاعدة رئيسية تصمد فى محيط من الظلام ، وأنها معركة كل قوى الحرية والتقدم فى العالم وأن هزيمتها نكسة لنا جميعا فى عصر انتصار الشعوب والثورات . واستجابت جميعا .

رفض الاتحاد السوفيتى نبوءة وكالة تاس ، وقرر إقامة جسر جوى بين موسكو وصنعاء ، وأن يوفر كل الأسلحة ومواد التموين ، وكانت « سوريا » التى خاضت حرب يونيو وعانت نتائجها .. قد استردت ثقتها وتبعاتها القومية بعد سقوط الانفصال ، وأرسلت سربا من الطيارين سد الفجوة التى كانت تحتاجها قوات الجمهورية فى الميدان وفى مواد التموين .

وكانت الجزائر بعد استقلالها ، قد آلت على نفسها أن تساهم فى كل معارك الأمة العربية وأن ترد الجميل ، وبعثت بأحد أقطاب الحكومة هناك ، يحمل مساهمة مالية ، ويخطب فى جماهير صنعاء فى الميدان الكبير على مرمى مدافع العدو ، ويشعل الحماس والثقة .

ولم يكن ممكنا قط أن تتخلى الجمهورية العربية المتحدة ، رغم كل الأعباء والمحن عن الشقيقة الصغرى ، وأن تسمح لأحد أن يدنس قبور شهدائها أو أن يطيح بأثمن تضحياتها ، وكان عبد الناصر يتابع المعركة يوما بيوم ، ويجد عزاء فى صمود المدينة الصغيرة ، وقامت الجمهورية العربية المتحدة بالتحايل على النصوص التى التزمت بها وهربت الذخيرة ومواد التموين فى صناديق بضائع ، وبكميات وافرة ..

ودارت المعركة سبعين يوماً كاملة .. أطول معارك الحرب ، وتخللتها لحظات عصيبة حالكة ، وتساقط الشهداء أطفالا ونساء وشيوخا ، وقادة وضباطاً وجنوداً بالعشرات والمئات ، وأصبح شعار الجميع الموت شرفا وأبطالا فى ظل الجمهورية ولا

الحياة أذلاء فى ظل الإمامة ، وسجل تاريخ اليمن وتراثها أساطير من البطولة والفداء .. وأضيف اسمها إلى مدريد وستالينجراد وبورسعيد ، رفرف شعار لن يمروا .

ووصف أحد الضباط المدافعين المعركة قائلا : « إن السبعين يوما لن تنسى فقد حوصرت صنعاء من كل جانب وطوقت من كل الجهات . وضربت بالمدافع الثقيلة البعيدة المدى ومن كل نوع وكان هدف أعداء الشعب القضاء على الثورة والجمهورية وذلك بعد خروج القوات المصرية المساندة لشعبنا وثورتنا ، وقد حشد العدو قوات هائلة واستخدم أسلحة فتاكة وجلب المرتزقة من كل مكان ، وأغدق عليهم الذهب وسلّطهم على ضرب صنعاء . ولكن ماذا حدث ! إجتمع سكان صنعاء عسكريون ومدنيون وطلاب ومثقفون وتجار — وحتى الطالبات — وقرروا الدفاع عن صنعاء وأطلقوا شعار « الله أكبر الجمهورية أو الموت » وخاضوا المعارك الشرسة فى كل الجهات ولم يبق فى البيوت أى رجل أو أى طفل بلغ عمره ١٢ سنة إلا وحمل السلاح وخرج إلى القتال ودافع عن العاصمة ، وتم تشكيل المقاومة الشعبية ، وكان هذا التلاحم والتكاتف العظيم ، وكانت حصيلة السبعين يوما أكثر من ألف شهيد أكثرهم من النساء والأطفال استشهدوا داخل صنعاء ، أما الأعداء وجيوشهم فخسائرهم لا تعد ولا تحصى ، فقد أبيدوا فى كل جبل ووادٍ ، وفلولهم لاذت بالفرار مع المرتزقة حاملين معهم الخزى والعار ، تاركين أسلحتهم وذخائرهم فى كل موقع غنيمة لجند الله وجند الثورة اليمنية » .

وفى اليوم الحادى والسبعين كان الحصار قد انقشع تماما واستسلم من بقى من قواته وكان بين الأسرى خبير اسرائيلى حارب فى سيناء ووضع خبرته فى خدمة قوات الحصار ..

كان فشل الحصار وانهياره ثورة ثالثة ، ومع بداية الحصار فى الشمال ،

كانت ثورة اليمن الثانية والتى انبثقت فى الجنوب وبدأت يوم ١٤ أكتوبر قد حققت نتائجها وأدرك الاستعمار البريطانى أن عليه أن يحمل عصاه ويرحل تماما كما نصحه عبد الناصر من مدينة تعز ، وسلّم الحاكم العام البريطانى السلطة فى عدن إلى الجبهة القومية لتعلن أول حكومة وطنية ديمقراطية شعبية فى اليمن الجنوبية .

وكان لاستقلال الجنوب دوره الذى قام به فى الحصار ، فقد صعدت كتائب الجنوب لتشارك فى تحرير العاصمة وساهمت حكومة الاستقلال فى مد الشمال بما استطاعت أن تقدمه من معونات ومساعدات ، وكانت بالطبع حزام أمن له فى الجنوب ، بعد أن تم جلاء القوات البريطانية .

ولهذا كان الاحتفال بالانتصار فى اليوم الحادى والسبعين احتفالا بانتصار الثورة الشاملة فى اليمن شمالا وجنوبا .

وشارك فى الاحتفال من القاهرة جمال عبد الناصر ، والذى صرح أنه كان أسعد الأيام وإشراقة الأمل وسط آلام ومحن متلاحقة ، وأسدل الستار على آخر أحلام وأوهام الأئمة ، وقال قائد الحصار محمد بن الحسين أن خصومه « حاربوا كالأسود » .

وقام دافيد سمايلى بمراسم الرثاء وقال فى نهاية كتابه عن مهمته : « فى ٨ فبراير سنة ١٩٦٨ قامت فرقة من القوات الجمهورية مدعمة بالمدفعية تشق طريقها من الحديدة إلى صنعاء ، وقامت بكنس الملكيين من الطريق ، وبهذا انتهى حصار صنعاء وفقد محمد بن الحسين فرصته الأخيرة » .

« وقد هزنى الحزن فى أعماق لأننى فى نهاية الأمر لم أستطع مساعدة أشجع وأقدر الأمراء الملكيين وكان أكثرهم طموحا ، وربما كان ذلك مما ساعد على فشله .. احتضرت القضية التى حاولت أنا وماكلين [عضو فى مجلس العموم] مساعدتها خلال خمس سنوات ، ولم يعد هناك مايمكن أن نقدمه » .

وقد انتهت عائلة حميد الدين وآخر حكام هذه الأسرة التى حكمت ألف عام ، وهو الإمام البدر ، ويعيش بسلام فى ضاحية برويلى قرب لندن ، ولا يطمح فى شيء !! »

الحســاب

كان طبيعيا أن تكون حرب اليمن هى البند الأول فى الحملة المتوحشة الضارية التى شنتها القوى الرجعية على عبد الناصر بمجرد رحيله إلى رحاب الله ، وهى حملة لا تزال ضارية محمومة لم تبرد حتى الآن ، وبعد عشرين عاما من غيابه .

وتجرد الرجعيون فيها من كل بديهيات الأخلاق والقيم ، وانتهكوا كل الحرمات والمقدسات واستباحوا أفحش الأساليب ، ولم يقفوا عن أى منكر أو محرم أو مكروه . وانفقت السعودية على هذه الحملة مالم تنفقه على معركة أو مشروع نافع أو صالح يعمر فى الأرض ، وحشدت لها جيشا بطول العالم العربى والعالم الاسلامى والعالم أجمع وضم كل نفاية الأقلام المرتزقة المأجورة ، وانهال سيل من الصحف والمجلات ودور النشر والمطبوعات بل والبرامج والأقلام والاذاعات ، كان المحور الرئيسى هو النيل من عبد الناصر ، والاستماتة المجنونة فى محاولة الاجهاز على تاريخه وتراثه ومحو اسمه وحذفه من تاريخ الأمة العربية .

ولم يحدث فى تاريخ أى زعيم من زعماء العصر شرقاً أو غرباً أن قامت دولة بمثل هذا الجهد وخصصت مثل هذه الموارد وجندت مثل هذا العدد من الناس من كل حدب وصوب ، ضد شخص انتقل إلى جوار ربه ، ولم يحدث أيضا أن فشل مثل هذا الجهد فشلا ذريعا ، بل وانقلب إلى ضده تماما وارتد مضاعفا إلى صدر أصحابه ... كما حدث لهذه الحملات الحاقدة المريضة ضد جمال عبد الناصر .

كان لابد وأن تكون اليمن هى أكبر الكبائر وأول الأخطاء والخطايا ، التى لا تُنْسى أو تُغفر أبدا لعبد الناصر .. وذلك لأن اليمن كانت وستظل وسوف تبقى أبدا الجرح العميق الغائر الذى نفذ إلى قلب النظام الظالم ، وأسقط كل أقنعته ، كشفت حرب اليمن كل سوءات وعورات النظم الرجعية ، وأزاحت الستار عن كل الأوهام والخدع والخرافات التى تلفعت بها وتدثر بها حكامها ، وكان المنظر « عاريا » شديد القبح والهزال .

وراحت القوى الرجعية المشفقة تماما على الجيش المصرى تردد أكاذيبها ، فكم كانت تود لوتهلك القوات المسلحة المصرية فى معارك جانبية وثانوية لا لشىء إلا إرضاء لأحقاده ولأطماعه فى التوسع واغتصاب الممالك ، وكانت الرجعية تود لو صان هذه القوة للمعركة الكبرى ضد العدو الحقيقى ، وهو اسرائيل ، ولم يُنهك عبد الناصر جيشه فحسب ، ولكنه أنهك وأفقر وأفلس شعبه الذى كان يحتاج أشد مما يحتاج أى شعب آخر إلى الإصلاح وإلى التنمية وإلى حل مشاكله الاجتماعية والاقتصادية ، والتى تجثم وطأتها على شعبه ، لقد ترك عبد الناصر شعبه فى فقر مدقع وذهب يبدد الملايين فى « قاع » لاينتهى فى اليمن .. وتجاهل كل نصح وتحذير ..

وهو لم ينهك شعبه فحسب ولكنه دمر أيضاً بلداً آخر كان يشتهر بتقاليده وفضائله وهو اليمن ، فقد أوقع أهله بعضهم فى البعض الآخر ، وأشعل الحرب والقتال فيما بينهم وزرع أحقاداً لن تسكن أو تهدأ عبر حقب وسنين طويلة .

ولهذا تنكر عبد الناصر لأعز مايملك العرب والمسلمون وهو دينهم ، فقد أوقع الفتنة بين المسلمين ، وحرض فرقا ضد فرق ، وأراق أنهارا من الدماء « الزكية » سوف يحاسبه التاريخ ، ويعاقبه الله عليها ، عقابا أليما ..

وقد أصبحت كلها تهما « تقليدية » ميكانيكية من فرط ما ترددت

وشاعت ، وبثتها أجهزة الحرب النفسية .. وإن كانت لم تنفذ إلى أعمق من السطح لأنها لا تقوم على أساس .

وليس هناك من لا يدرك إذا كان وطنيا وموضوعيا أن القوات المسلحة المصرية لم تذهب غازية أو معتدية ولكن ذهبت متطوعة ، لتنجد شعبا ، وتنقذ ثورة ، ولتحمى آلاف الأبرياء من مذبحة كانت مؤكدة لو لم تنجح الثورة ، ولهذا لم يكن هناك مناص من أن تذهب ، ولم يكن التاريخ ليغفر لها لو لم تفعل ، بل لم تكن لتسطيع أن ترفع رأسها بين الأمم عربا وغير عرب ، لو لم تهرع للقيام بذلك الواجب .

هذا فضلا عن أن القوات المسلحة المصرية ذهبت لتدفع غزوا كانت القاهرة مهددة به من المملكة ، وقد قلبت الثورة فى اليمن الميزان ، وابتعدت بالمعركة عن قلب مصر إلى ألف ميل بعيدة .. وبهذا تكاملت المبادىء والمصالح بين البلدين والشعبين .

ولا شك أن الحرب فى اليمن لم تكن نزهة عسكرية ، وقد حاربت القوات المسلحة المصرية حربا قاسية على بعد آلاف الأميال وسط جبال وصحارٍ ووديان لم تكن تألفها أو تعرف مسالكها ومجاهلها ، وقد حاربت كل أنواع القتال النظامى وغير النظامى ، وحاربت أمام قوى غير متكافئة جُمعت من كل أرجاء الأرض ، وسلحت بكل مالدى الترسانة الأمريكة والأطلنطية عامة . ولكن مهما كانت وطأة القتال ، لم تَخُر عزيمة الرجال قط ، ولم تنهك أو ترهق القوات ولم يجبن أو يستسلم جندى واحد . وفى النهاية انتصرت القوات المسلحة وتحقق الهدف الرئيسى الذى ذهبت من أجله ، وبأكثر بكثير مما توقع أحد — قامت الجمهورية فى الشمال وسقطت الإمامة وانتهت بذلك القرون الوسطى وقامت جمهورية يمنية ثانية فى الجنوب وطردت الاستعمار البريطانى وانتهت آخر معاقل الامبراطورية .. وأزيلت كل الحواجز والموانع بين شطرى الشعب والوطن التى قامت لأكثر من مائة

عام .. ولكى تقوم الوحدة حلم كل اليمنيين .

وليس هناك مايمكن أن يفخر به جيش أو تزهو به قوات مسلحة مثل أن يسجل تاريخها مثل هذه الصفحة من المجد والفخار ومثل أن يضم تراثها مثل هذه البطولة والتضحية .

وقد كان فى استطاعة السعودية لو كانت حانية حقا على جيش مصر وحريصة على حفظ قواته وادخارها لمعركة التحرير الكبرى ، أن توفر الكثير من الدم والعرق والمال ، لو لم تتولى قيادة المعركة ، ولم تفتح خزائنها ولم تستأجر فيالق « النصارى والكفار » وأعداء العرب والإسلام لكى يحاربوا « وينهكوا » أثمن ذخيرة الأمة وعتادها .

وعلى العكس من الإرهاق والإنهاك ، كانت حرب اليمن من الوجهة العسكرية الخالصة تجربة ثمينة تتمناها الجيوش ، لكى تختبر قواتها واستراتيجياتها وتكتيكاتها ، ولكى تكتشف ثغراتها ومواطن الضعف والقوة فى رجالها ، ولكى تستخلص وتستنبط كل الدروس المستفادة .. وتدخرها للمعارك القادمة .

ولم تُستغرق القوات المسلحة المصرية أو تُستهلك فى اليمن ، وقد ذهبت قوات بلغت فى أقصاها ٧٠ ألف جندى ، أى عشر مجموع القوات المسلحة . ولم تشارك فى حرب اليمن الأسلحة الأساسية والثقيلة وهى المدرعات والطيران إلا بقدر محدود . وكانت معارك الطيران تتم كثيرا من مطارات مصر ، ولا تحتاج للبقاء فى اليمن ، وظلت جاهزة مستعدة لمهمتها الأساسية ضد العدو الرئيسى .

ولا أحد ينكر مع ذلك أن حرب اليمن قد حفلت بالأخطاء الكبيرة والصغيرة ، ولم يكن ممكنا أن لايحدث ذلك فى حرب مثل هذه .

لم يكن هناك مناص من أن تواجه مواقف دقيقة وعصيبة ، وأن تفجر متناقضات ومصادمات غير محسوبة ، وأن تشعل حساسيات لم تكن تدرك

طبيعتها . ولكن لا يوجد على مر التاريخ حرب تمت كما رسمت وأرسيت معاركها أو حتى مفاجآتها ، ولا يذكر التاريخ حرباً لم تترك آثارا جانبية وندوبا وجروحا تستغرق زمنا طويلا حتى تبرأ .

وقد نشرت مذكرات قادة الحرب العالمية الثانية الكبار من كلا المعسكرين ، وكشفت أن الخلافات والصدامات والمتناقضات بين القادة ، كانت أحيانا أشق وأعنف منها بينهم وبين العدو .

وقد ذهبت القوات المسلحة المصرية ، إلى اليمن وهى تحمل متناقضات المؤسسة العسكرية المصرية بعد ثورة يوليو ، ولم يكن هناك بد من ذلك ، وكانت المؤسسة العسكرية « الثورية » تضم نماذج عسكرية مختلفة ، ضباط « البرجوازية العسكرية » الناشئة التى كانت تعتقد أنها تحكم أولا ثم تحارب ، وكان هناك الضباط المحترفون الذين يؤودون الواجب ، ويقومون بأصول المهنة ، وكان هناك الضباط الفاسدون والذين يحاربون من أجل الغنائم أولا .. ولكن الغالبية العظمى والتى حملت عبء الحرب وكل مسئولياتها كانوا جيش ثورة يوليو ، والذى يقوده وينفث روحه فى ضباطه وجنوده جمال عبد الناصر ، وهؤلاء لم يتقاعس أو يتقهقر أحد منهم خطوة . ورووا أرض اليمن بدم طاهر وخلدوا ملاحم وبطولات ، لاتزال حية مشرقة وستظل دائما .

ولم تكن « حرب اليمن » أو خسائرها مسئولة من قريب أو بعيد عما حدث للقوات المسلحة فى عام ١٩٦٧ ، ولم تكن بأى حال سببا فى النكسة ، وذلك لأن القوات المسلحة لم تحارب فى ١٩٦٧ .. وقد انتهت المعركة قبل أن تبدأ وتأكد الجميع أن مصر كانت ضحية مؤامرة محكمة الأطراف ، وأنها وقعت فى فخ نصب لها غدرا وخيانة ، وقد عززت كل الحقائق والوثائق التى اكتشفت بعدئذ هذا التفسير ، وقد أصبحت الهزيمة مؤكدة محتومة بعد مباغتة قوات الطيران فى الساعة الأولى ، ولم تعد هناك جدوى من أى معركة .

ولم تكن النكسة نتيجة لافتقاد القوات المسلحة للسلاح أو العتاد أو الرجال ولكن لافتقادها لما هو أهم ، أى « القيادة » ، ولم تكن القيادة العسكرية أهلا أو جديرة بتولى المسئولية ، وقد تعثرت وتخبطت بعد الضربة الأولى ، وفقدت أى قدرة على مواجهة اللحظات العصيبة التى تتالت ، وكانت القيادة العسكرية قد استأثرت بالسلطة كاملة فى القوات المسلحة ، وأبعدت السلطة والقيادة السياسية ، وأضرمت سلسلة من الصراعات والنزاعات داخل المؤسسة العسكرية نفسها زعزعت معنوياتها ، وأحبطت قدرتها على القتال .

ورغم كل الثغرات والنواقص إلا أن القوات المسلحة كانت تستطيع لو ملكت القيادة الحديثة والارادة ، أن تواصل القتال وتغير النتيجة ، ولكن انهيار القيادة العسكرية بأسرع مما توقع أحد جعل الكارثة محققة .

ولم يحسم بعد ، إذا كانت سلسلة الأخطاء التى تتابعت كما لو كانت مرسومة محسوبة ، كانت مجرد أخطاء جسيمة ، أو أخطاء جسيمة ترقى إلى مرتبة الخيانة ، أم كانت « خيانة عارية » وأن شرائح من البورجوازية العسكرية شاركت فى الكارثة ، لكى تجهز على النظام وتستولى على السلطة .. ومازال للتاريخ مايرويه .. وقد خرج الشعب — مع كل — لكى يبطل كل هذه الأوهام .. ولكى يحمى الثورة .

وقد أيقن كل الأعداء والخصوم وفى مقدمتهم « المملكة » أن كل شىء قد انتهى على أى حال ، وأن القوات المسلحة المصرية سوف تحتاج إلى نقاهة طويلة المدى حتى تصلح مرة أخرى للقتال ، ولكن مهما كان مافقدته القوات إلا أنها ظلت محتفظة بأهم ماتحرص عليه أى قوات مسلحة وهى إرادة القتال ، ولهذا بدأ الاستعداد للمعركة فى اليوم التالى مباشرة للنكسة كما قال الجنرالات ، وبدأت المعركة بعد أسبوعين فى رأس العش ، واستمرت فى حرب الاستنزاف وحتى أكتوبر ١٩٧٣ .

وقد أضافت ثورة اليمن وقيام الجمهوريتين اليمنيتين عمقا سياسيا واستراتيجا حاسما للثورة العربية ، وأصبحت تملك مفتاحى البحر الأحمر فى السويس وباب المندب ، وحيدت كل القواعد والمشاريع الاستراتيجية الاسرائيلية والأمريكية — الأثيوبية فى القرن الافريقى .

وقد تميزت حرب اليمن ، وكانت من أسمى ميزاتها إذ لم يقع فيها حدث واحد مخل بالشرف العسكرى أو يتنافى مع القيم القتالية .

وكانت التهمة الأخرى التى وجهتها المملكة وأعوانها لحرب اليمن هى أنها عطلت وعرقلت مشاريع التنمية فى مصر وبددت أموالها فى الحرب والتدمير ، ولو كانت هذه الأموال الطائلة قد أنفقت فى الداخل لقطعت مصر أشواطا طويلة فى حل مشاكلها الرئيسية وهى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية .

وعلى عكس « الافتراء » فإن مصر استطاعت وهى تحارب فى اليمن ، وتساند الجزائر ، وتقوم بكل تبعاتها العربية أن تحقق أهم تجربة فى التنمية فى كل تاريخ مصر الحديث بل فى العالم الثالث ، وهى الخطة الخمسية الأولى ١٩٦٠ — ١٩٦٥ والتى أشادت بها الأمم المتحدة وكل الهيئات الدولية المهتمة بالتنمية ، وأوصت باتخاذها نموذجا ، وأصبحت « مدرسة » يتوافد إليها الاخصائيون والسياسيون من كل أرجاء العالم الثالث .

وكان نجاح الخطة مثار قلق المملكة والولايات المتحدة ولهذا تقرر تشديد الحصار الاقتصادى على مصر .. حتى لا تحقق الخطة الثانية نجاحا أكبر !!

ولم يكن نجاح الخطة نجاحا مصريا ولكن نجاح للتنمية والاقتصاد العربى ، وهى مثل الحرية لا تتجزأ ، وتحرير اقتصاد بلد عربى من ربقة التخلف والاستغلال ، وتخطى اقتصاد عربى لخط الفقر الذى تعيش الأغلبية العربية تحته بدرجات كبيرة متفاوتة فى شدتها ، هو نجاح ودفعة لكل الاقتصاد العربى .

وقد كان نجاح خطة التنمية الخمسية الأولى فى مصر حافزا رئيسيا وراء كل جهود التنمية فى اليمن التى ساهم فيها بنصيب رئيسى الخبراء والفنيون والعمال المصريون ، والتى كانت من أهم وأثمن نتائج الثورة فى اليمن .

وقد شهد شاهد هو آخر من يشهد قائلا :

« ولعل أكثر ما أثر فى نفسى وخلف لدى انطباعاً لا يُنسى هو جهد القوات المسلحة المصرية لنشر الثقافة والوعى فى اليمن ولكسب عقول وأرواح اليمنين ، وكانت هناك إدارات وفرق خاصة لذلك ، وتضم خبراء وعمالاً يقومون بكل أنواع المهام ، مثل حفر الآبار وإقامة المضخات وبناء المدارس والمستشفيات وتوفير المدرسين والمهندسين والإخصائيين الزراعيين والأطباء » .

« وكانت هذه هى وسيلة المصريين فى حمل الحضارة الحديثة إلى اليمن ، وقد استطاعوا أن يحققوا إصلاحات كان من المستحيل أن يقوم بها أئمة اليمن السابقين . ومن الأمور التى استرعت نظرى اهتمام القوات المسلحة المصرية فى اليمن بالثقافة الدينية ، وهناك مائة عالم من الأزهر جاءوا ليقوموا بالوعظ والتدريس ولكى يقنعوا اليمنيين أن لا فرق فى الاسلام بين شيعى وسنى وبين زيدى وشافعى وأن وجود الإمام ليس ركنا من الاسلام » .

وهذا الشاهد هو دانا آدام سميث مراسل النيويورك تايمز وهى جريدة مشهورة بعدائها لمصر وثورتها وزعيمها .

كانت روح « الثورة » تنعكس فى البناء كما تنعكس فى الميدان ، ورفعت مصر الثورة شعار يد تبنى ويد تحمل السلاح .. وامتد البناء إلى أقصى ركن فى مصر أو فى اليمن .

واستطاعت مصر وهى تحارب فى اليمن أن تبنى أعظم آثار التنمية ، وأساسها الراسخ الشامخ وهو « السد العالى » والذى أصبح أحد معجزات العصر ، وقد

افتتحه كل الزعماء العرب فى احتفال تاريخى .. وكان فى مقدمة المدعوين رئيس جمهورية اليمن .

ونسبت إلى حرب اليمن ، تهمة أخرى طريفة ، لاشك ، هى أن القوات المصرية فى اليمن قد عرقلت « نمو الديمقراطية فى اليمن » ، وأن ذلك كان امتدادا طبيعيا لمهمة « الانقلاب العسكرى » فى مصر ، فى ٢٣ يوليو والذى أجهض الديمقراطية والحريات السياسية فى مصر .

وأول من قال بذلك يسارى بريطانى نصَّب نفسه « أيديولوجياً » للثورة اليمنية وثورات العرب جميعا ، ونقلها بعض اليساريين العرب وأكثرهم تطرفا وتشدقا وهم « البتروليين » إن صح التعبير . ولم يكن ممكنا بالطبع أن تنتقل اليمن رأسا من الإمامة إلى ديمقراطية برلمانية متعددة الأحزاب : البورجوازية والاشتراكية والماركسية اللينينية ، لمجرد إرضاء هؤلاء، وكان القضاء على الإمامة وتحرير الجماهير واطلاق مواهبها وطاقاتها لكى تجرب وتختار وتبنى لنفسها بنفسها أول المهام والتى حققتها القوات المسلحة المصرية بشرف .

وكانت الثورة الثقافية التى صحبت ثورة يوليو والتى تفتحت على كل تيارات العصر هى التى حملت إلى اليمن ، لفحات الوعى التى مهدت للثورة ، والتى جذبت المثقفين إلى صفها وأصبحوا من أول أعمدتها .

وقد كانت الثورة اليمنية على وعى تام بضرورة العمل السياسى والتنظيم السياسى ، ولكن بأن تشق طريقا يمنيا ملائما للتطور وبما يلائم واقعها الخاص وليس بالضرورة الطريق الذى يحدده لها ، مفكر قابع فى لندن .

ولسوء حظ هؤلاء أن مصر وهى تحارب فى اليمن كانت توطد أهم تجربة ديموقراطية حققتها فى حياتها السياسية . وتضيف إضافة خلاقة إلى الديموقراطية الجديدة ــ ديمقراطية العالم الثالث ــ وذلك بعقد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ،

والذى تمخض عن أول وثيقة أيديولوجية عربية هى الميثاق ، وعن تنظيم يمثل مرحلة متقدمة من التحليل والتنظيم السياسى هو الاتحاد الاشتراكى ، ومن أول دستور اشتراكى عربى — يضيف إلى الديمقراطية بتحديد نسب العمال والفلاحين ، فى كل المجالس المنتخبة .

وكان إعلان ميثاق ونظم ودستور الاشتراكية الديمقراطية فى مصر — حدثا تاريخيا فاصلا ونقطة التحول الثانية منذ أول دستور حقيقى سنة ١٨٨٢ .. أعلن الليبرالية ، وكان أيضا السياج الحقيقى المتين الذى تمخضت عنه عبقرية عبد الناصر الفكرية والسياسية . ولكنه كان أيضا ثمرة التجربة والخطأ خلال عشر سنوات منذ قيام الثورة والبحث عن ديمقراطية مصرية عربية صحيحة .

ولم تكن مصر تستطيع أن تفرض على اليمن نظاماً ، أو أن تمنعها من إقامة نظام تريده ، ولكن أن تقدم تجربتها فى البحث عن نظام أفضل وعلى الأصح فى الوصول إلى الحقيقة عن طريق التفكير والممارسة ، وليس نقل الأفكار أو التجارب نقلا حرفيا !!

والديمقراطية ليست شكلا ، ولكن جوهر ومضمون ، ولعل أهم انجاز ديمقراطى للثورة كان أنها حطمت الطوق الحديدى الذى كان مضروبا حول شبه الجزيرة ودول الخليج ، والذى أراد أن يعزلها عن مجرى الثورة العربية وأن يحصنها ضدها ، ويجعل منها منطقة أمن قومى خالصة للغرب ، وحقل استثمار واستغلال للشركات والاحتكارات الكبرى ، وتجنى أكبر الأرباح .

وكانت امتيازات البترول وايراداته تعتبر قانونا « أملاكا خاصة » للأسر الحاكمة وتتقاسم ايراداته فيما بينها وبين الشركات التى كانت تحصل على نصيب الأسد .

أصبح لا مناص من شيء من الترشيد للنظم الاقتصادية والمالية وتغيير بعض

الأطقم الحاكمة واجراء اصلاحات سياسية واقتصادية .

ولعل أكبر دولة أفادت من ثورة اليمن كانت المملكة العربية السعودية وقد أثارت الصدمة صراعا حادا مابين من يمكن تسميتهم بالتقليديين والاصلاحيين ، وانتهى الصراع إلى عزل الملك سعود وإلى تولية الأمير فيصل الذى كان يتزعم الدعوة للتغيير .

وكان طبيعيا أن يمتد الأثر الى كل دول ودويلات شبه الجزيرة بدرجات متفاوتة ومختلفة ، وتغير النظام فى دولة عمان ، وقامت دولة جديدة إئتلافية هى الإمارات العربية المتحدة .

وكانت الثورة « الروحية » التى فجرتها اليمن ، أحد أعمق آثارها ـــ حررت الاسلام من ركام الخرافة والبداع والضلالة ، التى أحاطت به خلال ألف عام . والتى أصبح عن طريقها وسيلة لتبرير الاستعمار والاستبداد والاستغلال ، ومجرد درع لحماية العروش والأسر الحاكمة ونظمها المتخلفة العتيقة ومجرد سلاح أيديولوجى فى أيديهم لتعمية وتجهيل واستعباد الجماهير ، روحيا وماديا .

قدمت الثورة اليمنية التفسير الصحيح للدين ، كثورة روحية وزمنية تحرر عقل الانسان وروحه وتقيم العدل وتحقق المساواة وتخلق المجتمع الذى لايبيت فيه أحد جائعا ، وجاره متخما ، والذى لا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى . أزاحت الثورة اليمنية الغشاوة الثقيلة التى كانت مضروبة على أعين الجماهير وعقولهم .

وفى النهاية ، أكدت ثورة اليمن أنها وُجدت لتبقى . قد تهب عليها الأعاصير وتتلاطم حولها الأمواج . وتهتز تحتها الأرض بالزلازل ، ولكنها باقية مابقى التاريخ ، وسوف تشق طريقها .. لن يستطيع أحد قط أن يعيد عقارب الساعة إلى الإمامة ..

قال أحد الثوار العظام ذات يوم : إن الذين يحلمون بثورة طاهرة مبرأة من كل الأخطاء والعيوب ، سوف يموتون قبل أن يشهدوا مثل هذا الحدث .

وينطبق ذلك على كل الثورات الفرنسية والروسية والمصرية واليمنية . ولا مناص عند هدم القديم العتيق البالى وإقامة الجديد العصرى على أنقاضه ، أن تنشب العثرات والثغرات وأن ترتكب أخطاء وخطايا .

وحساب الثورات حساب عسير ، والثورة عيد للفقراء ، ومأتم للطغاة والأغنياء ، ولا يمكن التوفيق .

ولكن بأى المقاييس ، فإن الحساب الختامى للثورة اليمنية يظل مجيدا .

المحتويات — صفحة

حسن يوسف اللمونتى

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem



هذا الكتاب

ليس هناك من لا يدرك إذا كان وطنياً و موضوعيا أن القوات المسلحة المصرية لم تذهب غازية أو معتدية و لكن ذهبت متطوعة ، لتنجد شعباً ، و تنقذ ثورة ، و لتحمى آلاف الأبرياء من مذبحة كانت مؤكدة لو لم تنجح الثورة ، و لهذا لم يكن هناك مناص من أن تذهب ، و لم يكن التاريخ ليغفر لها لو لم تفعل ، بل لم تكن تستطيع أن ترفع رأسها بين الأمم عربا و غير عرب ، لو لم تهرع للقيام بذلك الواجب .

إن قصة الحرب فى اليمن بكل أحداثها نجدها فى هذا الكتاب كما يرويها الكاتب الكبير الأستاذ محمد عودة .

دار المستقبل العربى

دار المستقبل العربى

٤١ شارع بيروت . مصر الجديدة
ت ٢٩٠٤٧٢٧ القاهـــــرة